BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

تأملات في الدبلوماسية

حالات مقارنة في الممارسة الدبلوماسية والسياسة الخارجية

تأليف
ستيفن تشان

ترجمة
شيرين جابر وشيريهان سعد

مركز الدراسات الاستراتيجية
Strategic Studies Center

٢٠١٩

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

تشان، ستيفن، 1949-
Meditations on Diplomacy: Comparative Cases in Diplomatic Practice and Foreign Policy

تأملات في الدبلوماسية : حالات مقارنة في الممارسة الدبلوماسية و السياسة الخارجية / ستيفن تشان ؛ ترجمة شيرين جابر و شيريهان سعد. - الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٩.

صفحة ؛ سم

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 978-977-452-536-7

١. العلاقات الخارجية -- فلسفة. أ. جابر، شيرين. ب. سعد، شيريهان. ج. مكتبة الإسكندرية. د. العنوان.

ديوي – 327.101 2019872404593

ISBN 978-977-452-536-7

رقم الإيداع: 2019/9397

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٩.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذا الكتاب، كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا الكتاب، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

طُبع بمصر
١٠٠٠ نسخة

تأملات في الدبلوماسية

حالات مقارنة في الممارسة الدبلوماسية والسياسة الخارجية

تصدر الترجمة العربية من هذا الكتاب بإذن خاص من الموقع الإلكتروني E-International Relations.

مكتبة الإسكندرية
مركز الدراسات الإستراتيجية
سلسلة «جسور» (٣)

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى الفقي

المشرف العام

مصطفى الفقي

سكرتير التحرير

محمد العربي

مراجعة الترجمة

خلود سعيد

المراجعة اللغوية

نادية طه
بريهان فهمي

التصميم الجرافيكي

مها رفعت

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبِّر عن آراء كاتبها فقط، ولا تُعبِّر عن رأي مكتبة الإسكندرية.

الفهرس

المقدمة	٩
١- نظريات السياسة الخارجية والعلاقات الدولية	١١
٢- أقدام من حديد وطين: السياسة الخارجية الأمريكية والبريطانية والدبلوماسية من تغيير نظام إلى آخر	٢٣
٣- صعود وسقوط أوروبا: الوحدة والتحدي	٤٣
٤- عندما يستيقظ التنين	٥٥
٥- الدبلوماسية الإفريقية وتنمية الوعي الذاتي	٦٩
٦- الدبلوماسية الشرق أوسطية التي لا يمكن التكهن بها: كتالوج تاريخي من الكوارث والتأجيلات	٨٣
٧- الأصيل والدخيل: شياطين إسرائيل في الألفية الجديدة	٩٩
٨- العالم يتحد وينفصل: على أحدهم أن يبقيه متحدًا	١١١
٩- المستثنى يدافع: دبلوماسية الصين الاقتصادية متعددة الأطراف	١٢٣
١٠- قابلية الجهاد للتفكك	١٣٣
١١- هل هذه هي الأيام الأخيرة للنظام العالمي؟ ليالي الجهل الطويلة قبل نهاية العالم	١٤٩
١٢- صيغة تأمل: الدبلوماسية ونهاية السياسة الخارجية كما نعرفها	١٥٩
قائمة المراجع	١٦٥
عن المؤلف	١٦٧

الإهداء

إلى بطرس سولومون وإستر يوهانيس
صديقيَّ وطالبَي الدبلوماسية اللذين لقيا حتفهما ظلمًا.

المقدمة

حاضرت عن الدبلوماسية لسنواتٍ عديدة، ليس فقط بالمؤسسات الأكاديمية، وإنما أيضًا بالوزارات الحكومية منذ أوائل التسعينيات في الفترة السابقة لاستقلال إريتريا والسنوات القليلة التالية، حيث قمت بتدريب وزارتها الجديدة للشئون الخارجية. كان ذلك قبل تحول البلاد إلى التعصب، ومن ثم سجن وإعدام أول وزير للخارجية وأحد جنرالات التحرير في إريتريا وطالبي بطرس سولومون. وأهدي هذا الكتاب له فهو لم يستحق ذلك المصير، ولزوجته إستر يوهانيس مناضلة التحرير التي ماتت في السجن هي الأخرى.

لقد تطورت محاضراتي وتأملاتي حولهما على مر السنين بعد انتهاء فترة عملي بإريتريا. وكانت أحدث التعديلات التي طرأت عليها بكلية القيادة بجامعة جوهانسبرج تحت إشراف الدكتور سيدني موفامادي أصغر وزراء نيلسون مانديلا وقت تحرير جنوب إفريقيا، ثم في ٢٠١٥ بجامعة بيرزيت بفلسطين، حيث شغلت منصب رئيس التميز الأكاديمي بمؤسسة كونراد أديناور. وانتخبت رئيسًا لمؤسسة جورج سوروس للسياسة العامة بجامعة أوروبا الوسطى (CEU) في بودابست عام ٢٠١٦.

يحتوي هذا الكتاب على النصوص المُعدلة للمحاضرات والتأملات التي ألقيتها في ندوة الدراسات العليا هناك. كما يوجد سلسلة من مقاطع الفيديو الموجزة التي لا تتجاوز مدتها عشر دقائق لكل محاضرة من هذه المحاضرات[١]. أتوجه بالشكر إلى دوروثي لنير من وحدة التقييم المركزية التي أنتجت هذه الأفلام. كما أريد أن أشكر

(١) Stephen Chan, "Lectures and MOOCs", *YouTube*, https://www.youtube.com/playlist?list=PLPp1F7lFcKeBFtJz4KBo_tuTPCGwW79bT

طلابي في أسمرة وجوهانسبرغ ورام الله وبودابست، وكذلك في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن، الذين طالما اعترضوا على كل ما أقول. وسيكون هذا الكتاب ردًّا على تحدياتهم ومناقشتها، وسيسعد طلابي الفلسطينيون في بيرزيت بذلك.

لا تنبع الأفكار أو التأملات من دراستي فحسب، بل أيضًا من سنوات خدمتي كموظف مدني دولي لأمانة الكومنولث، ومن المبادرات الدبلوماسية العديدة والمفوضيات العليا التي أُلحِقْتُ بها في السنوات التالية والتي تراوحت من العمل في مناطق الحرب بإفريقيا إلى محادثات رفيعة المستوى في عواصم العالم الكبرى. كما أود أن أشكر كل من ساعدني أو تحمل جهودي الخرقاء لصالح العلاقات الدولية في الكثير من الأماكن والأزمنة.

١

نظريات السياسة الخارجية والعلاقات الدولية

إن الدبلوماسية ليست أمرًا حديثًا، ولكنها اكتسبت العديد من الخصائص في العصر الحديث، لكن فكرة إرسال مبعوثين لدولة أخرى فكرة قديمة كانت شائعة في العديد من الثقافات. ففي القرن التاسع عشر أرسل الملك لوبينجولا؛ ملك نديبليه، (زيمبابوي حاليًا) سفراء للملكة فيكتوريا احتجاجًا على انتهاك المستوطنين والمغامرين البريطانيين لأرضه. ومن قبله تلقت الملكة إليزابيث الأولى السفير المغربي في بلاطها، ولا تزال صورته معلقة بمعرض متحف تيت بريطانيا، حيث تعمدت الملكة إليزابيث في أعقاب رفض هنري الثامن للكاثوليكية السعي للحصول على حلفاء دبلوماسيين من دول شمال إفريقيا الإسلامية في الصراع ضد إسبانيا الكاثوليكية. في الواقع، لم تكن صورة رجال الدولة والقادة العسكريين من دول شمال إفريقيا غريبة في إنجلترا بالعصر الإليزابيثي، فمنها ولد «عطيل» الجنرال المغربي بالجيش البحري بالبندقية بطل ملحمة شكسبير الخالدة. لم يتسم عطيل فقط بسمات النبلاء، وإنما تزوج أيضًا بامرأة أوروبية بيضاء، ولم يُسفِر خلط الأعراق وقتها عن أي غضب شعبي. كانت الطبيعة الكزموبوليتانية العالمية للدبلوماسية والفن الإليزابيثي ميزة لعصر مفرط في الإبداع إن لم يكن مفرطًا في الدموية أيضًا.

سنرى لاحقًا تبعات اتصال إليزابيث بشمال إفريقيا، وذلك في سياق الدولة الأمريكية الوليدة، وبحثها عن الاعتراف الدبلوماسي في وجه العداء البريطاني، وقيادة أوروبية للعلاقات الدولية الحديثة. ولكننا نبدأ بملاحظة أنه على الرغم من أن الدبلوماسية ليست حديثة العهد، فإن استخدامها في نوع معين من الدول لم يظهر حتى وقت قريب؛ وعليه فإن الدبلوماسية كما نعرفها سمة أساسية للحداثة.

نشأ هذا النوع من الدول إثر المداولات المُطولة التي أدت إلى صلح وستفاليا عام ١٦٤٨. وقد جاء ذلك في نهاية حرب الثلاثين عامًا التي شتتت أوروبا، حيث كانت القارة بأكملها تحمل السلاح بالرغم من محاولات بعض الدول لتجنب أسوأ ما في الصراع. عكست الخلافات الداخلية والشكوك المسلحة للجماعات المتنازعة كما لخصتها رواية الفرسان الثلاثة لألكسندر دوماس الجو العام داخل أوروبا ككل. وقد كان الصراع في منطقة أوروبا الوسطى وحشيًّا ومدمرًا. كانت أغلب القارة آنذاك عبارة عن مجموعة من الدويلات. وقد قام ١٧٩ سفيرًا بتمثيل ١٩٤ دويلة منها في وستفاليا، وكانت الكثير من المداولات المبكرة حول خطة الجلوس. وبما أن الحروب كانت دينية؛ فإن أحد المبادئ الرئيسية للمعاهدات التي ظهرت كان يتعلق بعلمانية نظام الدولة. ومن المبادئ الأخرى أن الدبلوماسية كانت ممكنة خلال كونغرس، أي أن الدبلوماسية متعددة الأطراف في هذه الحالة عملت على إنهاء حقبة من الاضطرابات. ومن أهم المبادئ أن الدولة العضو في النظام الدولي يجب أن تكون لها سيادة مُعترف بها، ويعني الاعتراف هنا أن هناك حدود لمدى تدخل أي دولة ضد دولة أخرى.

بالطبع، تم خرق هذه المبادئ أكثر من ممارستها الفعلية في السنوات التالية، فقد تسبب نابليون بشكلٍ واضح في تدمير حدود الدول المجاورة. ولكنه جلب أيضًا مع معاركه حقبة من الدستورية، كان فيها للمواطنين حقوق أمام حكامهم. وعلى الرغم من هزيمته، بقيت فكرة الحقوق داخل الدول. وهنا كان السؤال هو ما مدى إمكانية أن تصبح تلك الحقوق قاعدة عابرة للدول، أو عرفًا دوليًّا؟ احتفل بيتهوفن في سيمفونيته التاسعة باستخدام أشعار شيلر بالتطلع إلى الأخوة العالمية. ولكن قبل تناول هذا السؤال، عُقد مؤتمر فيينا (١٨١٤-١٨١٨) لضمان عدم ظهور نابليون آخر أبدًا، وتأسيس فكرة حفل القوى. نعم قد يكون هناك اجتماع لجميع الدول، لكن الدول الأقوى هي من ستقوم بعزف الموسيقى وإدارة الأداء. لا يمكن للفنانين المارقين أن يكونوا في الأوركسترا. والكلمات الجميلة مقبولة، شريطة أن يتحكم قائد الفرقة الموسيقية بطريقة الغناء.

تكررت فكرة الحفل بعد الحرب العالمية الثانية بتأسيس الأمم المتحدة التي تعتبر اجتماعًا دبلوماسيًّا متعدد الأطراف، ولكن هذه المرة هناك مجلس أمن يعتبر قائدًا للفرقة. بدت تلك الفكرة لهنري كسنجر شكلًا مثاليًّا للعلاقات الدولية، حيث تناولت أطروحته للدكتوراه من جامعة هارفارد نتائج مؤتمر فيينا، وطبّق فكرة الحفل الموسيقي وقائد للحفل في جميع ممارساته الدبلوماسية كمستشار للأمن القومي الأمريكي ووزير للخارجية.

الدولة والقوة

أصبح مفهوم الدول القوية ليس مرتبطًا فقط بمصالحها السيادية، ولكن أيضًا بمصالحها في السيطرة على العلاقات الدولية لنظام الدولة، وقد أصبح مفهوم الدول القوية هو المفهوم الأساسي لنظام أكاديمي جديد تم تأسيسه بعد الحرب العالمية الأولى، حيث كان الدمار في هذا الصراع يتم بتكنولوجيا لم يُسمع بها في حرب الثلاثين عامًا، مما دفع الرئيس الأمريكي إلى مغادرة بلاده لمدة ستة أشهر كاملة لفرض رؤيته بكيفية إدارة النظام الدولي. يبدو أن مبادئ وودرو ويلسون ملهمة للكثير، حتى أن ديفيد دايفز المليونير ورجل الأعمال الخيرية الويلزي قد وهب وأقام أول منصب لما يعرف الآن بـ«العلاقات الدولية» بجامعة ويلز أبريستويث، وأطلق عليه منصب وودرو ويلسون.

كانت تلك المبادئ معنية في الأساس بالشفافية الدبلوماسية والتعاون الدولي. تأسست عصبة الأمم كجمعية متعددة الأطراف للتعاون الدبلوماسي، وقد أثرت جهود ويلسون في أوروبا على صحته بشكل كبير، إذ كان أول رئيس أمريكي يزور أوروبا ويلتقي مع البابا. كما أن غيابه لفترة طويلة أدى إلى تضاؤل نفوذه في مجلس الشيوخ الأمريكي. لم يصدق مجلس الشيوخ على المعاهدة الناتجة عن المناقشات الأوروبية. ولم تنضم الولايات المتحدة أبدًا إلى عصبة الأمم، مما يعني عدم وجود

قائد في قلب عصبة الأمم التي أثبتت عدم فاعليتها. غزت اليابان الصين، وغزت إيطاليا الحبشة (إثيوبيا حاليًّا)، وعلى الرغم من استغاثة البلدان المحتلة بعصبة الأمم، لم تستطع أن تفعل شيئًا لحماية أعضائها من سيطرة أعضاء آخرين.

وفي الوقت ذاته أنشأت المناقشات حول العلاقات الدولية كنظامٍ أكاديمي جديد مدرستين فكريتين أساسيتين؛ كانت أولاهما بالتأكيد: ما يسمى الآن بالمدرسة الواقعية التي تنادي بمركزية الدولة، وتوجيه قوة الدولة لمصالحها. أما المدرسة الثانية: فكانت المدرسة المثالية أو اليوتوبيا التي اقترحت أساسًا أوسع للتعاون الدولي في المنظمات المدنية والدبلوماسية متعددة الأطراف. كانت النبرة الأخلاقية العالية التي بدت وكأنها نابعة من ويلسون جزءًا من هذه المثالية، مما أوجد بدايات القلق المعياري بشأن العلاقات الدولية. كما تباهى ويلسون بأن الولايات المتحدة بقيمها ومعاييرها هي من أظهرت قيادتها للعالم قائلًا: «أخيرًا يعرف العالم أمريكا كمنقذة»[٢]. كانت الأخلاق العالية هي أخلاق الولايات المتحدة، حتى وإن كانت تستند إلى الفكر الأوروبي الذي ألهم الثورة الأمريكية والمعايير الأخلاقية لأقوى دولة بالعالم.

لم تكن السلطة الواقعية قائمة بذاتها في أي وقت من الأوقات، إنما كانت دومًا تحت ظل معياري يكتنفه القانون الدولي. كانت دائمًا تتعامل مع العلاقات الدولية كعلم والسياسة الدولية كممارسة وسياسة، وكأنهما وجهان لعملة واحدة لا يمكن لإحداهما البقاء دون الأخرى. وعليهما معًا مواجهة ظاهرة صياغة السياسة الخارجية الفوضوية اللانظرية. لم تعن طبيعتها العملية التفصيلية وحججها أو حتى أتفه تفاصيلها - حتى في أوقات الأزمات - وجود أي مفاهيم معيارية لصياغة السياسة الخارجية، وتعتبر دراستها من العلوم التطبيقية، أما الدبلوماسية فهي ممارسة تطبيقية تنبع من الدول وسياساتها حيث تتحقق النتائج بفوضوية، وتعتبر «النظرية التنظيمية»

(٢) An address in Portland, Oregon, 15 September 1919.

كما يتم تدريسها في كليات إدارة الأعمال الوحيدة التي يمكن الاستفادة منها في دراسة صياغة السياسة الخارجية. وتوضح إحدى الأزمات التي تعمق في دراستها جراهام أليسون تلك النقاط. ويقترح أليسون ثلاثة نماذج لصياغة السياسات كما هو موضح أدناه حيث يتم تناول كل واحدة على حدة بالقسم التالي.

جوهر القرار

مثّلت أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ خطرًا داهمًا على العالم، حيث بدت المواجهة النووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حتمية. وبدا رئيس مجلس الوزراء السوفييتي وسكرتير الحزب نيكيتا خروتشوف عازمًا على تعزيز حليفه الكوبي واختبار قوة الرئيس الأمريكي الشاب كينيدي في أعقاب الغزو الفاشل لكوبا من قبل المنفيين العام المنصرم، والذي دعمته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. كانت سياسته تهدف إلى تسليح كوبا بالصواريخ القادرة على حمل رؤوس نووية موجهة نحو الولايات المتحدة. وأثار ذلك قلق الولايات المتحدة على أنه تهديد أمني حقيقي، ووجهت تحذيرًا للاتحاد السوفييتي بأن سفن البحرية الأمريكية ستعرقل مسار السفن السوفييتية التي تحمل مثل هذه الأسلحة إلى كوبا في أعالي البحار، مما يعتبر غير قانوني وفقًا للقانون الدولي حيث كان للسفن الحرية فيما تنقل في أعالي البحار في غير الحرب، كما أنه يمكن لأي دولة وفقًا لمبادئ وستفليا الحصول على الأسلحة، ويمكن لأي دولة أخرى إرسالها. لكن التصميم على مواجهة التهديدات ولا سيما تلك التي أطلقتها، أو أسهمت بها، وحرضت عليها القوى الأوروبية من اهتمامات الولايات المتحدة منذ مبدأ مونرو عام ١٨٢٣ الذي وضع أمريكا اللاتينية ضمن نطاق نفوذ الولايات المتحدة، ومنطقة استبعاد للقوى الأوروبية العظمى. رفضت السفن السوفييتية التراجع عام ١٩٦٢، وتقدمت نحو كوبا والحصار البحري الأمريكي.

كان السؤال الذي سأله العالم إذ شهد الواقعة بسيطًا: من سيتراجع أولًا؟ هل سيحاول الرئيس السوفييتي القوي أن يبحر بسفنه عبر الحصار، وإن فعل، هل ستغرقها السفن الحربية الأمريكية؟ إذا حدث ذلك فالحرب النووية وشيكة. وفي النهاية، تراجعت السفن السوفييتية. وكان ذلك انتصارًا عظيمًا للرئيس الشاب الذي اتبع سياسة حافة الهاوية. وفي رواية روبرت كينيدي - المدعي العام آنذاك وعضو في «حكومة الحرب» التي أسسها شقيقه الأكبر - يرجع ذلك الانتصار إلى التصميم الصارم للرئيس، وأقرب مستشاريه الذين لم يتنازلوا حتى في لحظات عدم اليقين الشديد، والتزموا بمسار شديد الخطورة، ولكن بعقلانية محسوبة[٣]. هل سيخاطر السوفييت بتدمير شامل لروسيا من أجل تسليح كوبا؟ أي حرب ستدمر كوبا أيضًا. لكن جراهام أليسون، في دراسة بعنوان «جوهر القرار» عام ١٩٧١ أقر بأنه على الأرجح لا يوجد طريق عقلاني مستقيم وحاسم في الوقت ذاته[٤]. اقترح أليسون ثلاثة نماذج لصياغة السياسة الخارجية، ولا تزال نماذجه تُستخدم كأدوات تحليلية حتى يومنا هذا.

نموذج «الفاعل العقلاني»: هو النموذج الذي ربما نسبته الولايات المتحدة إلى الرئيس كينيدي. في الواقع، كما قال أليسون يجب تجاهل الكثير من الحقائق لوضع السيناريوهات ضمن إطار «عقلاني». فلقد توقعت الولايات المتحدة في إطار التصرف بعقلانية أن الاتحاد السوفييتي سيتراجع إذا تصرف أيضًا بعقلانية، حيث كان التدمير المتبادل المؤكد (MAD كما كان المصطلح النووي في تلك الأيام) ثمنًا باهظًا يُدفع من أجل كوبا.

(٣) Robert F. Kennedy, *Thirteen Days: A Memoir of the Cuban Missile Crisis*, Introduction by Robert S. McNamara and Harold Macmillan (New York, NY: W. W. Norton, 1969).

(٤) Graham T. Allison, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Missile Crisis* (Boston, MA: Little, Brown and Company, 1971).

يعتبر نموذج «العملية التنظيمية» مقنعًا، حيث تسعى الحكومة وقت الأزمات إلى تقسيمها، وإسناد كل جزء إلى وكالة أو إدارة حكومية متخصصة. فمن المرجح أن تعرف وزارة الدفاع المسائل العسكرية أكثر من وزارة الخارجية، بينما تعرف وزارة الخارجية أكثر عن الخيارات الدبلوماسية. ورغم ذلك، ففي أوقات الأزمات، حيث يكون الوقت ضيقًا، يُمكن استخدام خطط وخيارات مسبقة تعكس روح واتجاهات الإدارة المعنية، باختصار يمكن استخدام «مخزون» الخطط والاستجابات، مما يعني أنه حتى في حكومة شديدة التنظيم، قد لا تكون دبلوماسية الأزمة ملائمة تمامًا لطبيعة الأزمة التي يتم التعامل معها. في كثير من الأحيان، قد يُستخدم أول نموذج استجابة «ملائم» مقترح؛ لأن الأكثر ملاءمة يتطلب إعداده المزيد من الوقت، على سبيل المثال في حالة أزمة الصواريخ الكوبية، فكر كينيدي في ضربة جوية تستهدف المعدات السوفييتية التي وصلت بالفعل إلى كوبا، لكن خطط سلاح الجو المسبقة الوحيدة كانت مبنية على قصف تشبعي يمكن أن يتسبب أيضًا في أضرار جانبية جسيمة؛ ولذلك كان الحصار البحري أفضل الخطط متاحة.

بموجب نموذج «السياسة الحكومية»، قد يختلف رؤساء تلك الأقسام تحت رئاسة الجمهورية، وإن لم يختلفوا فهم من «التابعين» يعينهم الرئيس تحديدًا للموافقة على آرائه، مما يؤثر على جودة مشورتهم. ولكن في لحظات الأزمات الحالكة، يجب حتى على أقوى الرؤساء وأكثرهم ثقة أن يتفاوض أو يستخدم الأساليب السياسية من أجل إتمام ما يشاء، على الأقل لتجنب إساءة فهم أوامره أو تنفيذها بطريقة لم يقصدها. أما في حالة الدول الديمقراطية، فعليه أن يستخدم الأساليب السياسية لإقناع الهيئة التشريعية والجمهور بأنه على صواب. دفع فشل غزو كوبا عام ١٩٦١ من قبل المنفيين المنشقين - فيما عرف بفضيحة خليج الخنازير - كينيدي إلى عدم الثقة بنصيحة وكالة الاستخبارات المركزية. ومن أجل الحفاظ على تأييد المستشارين العسكريين، هاجم الأخوان كينيدي الحلول الدبلوماسية التي اقترحها سفير الأمم المتحدة، أدلاي

ستيفنسون. أما داخل الجيش، فكان على كينيدي أن يحرك الرأي نحو الحصار بدلًا من الضربات الجوية، وهكذا نشأت فكرة الحصار البحري من خلال عملية سياسية، ولكن كان على كينيدي أيضًا أن يقوم ببعض الإيماءات السياسية حتى يتمكن الرئيس السوفييتي من إنقاذ ماء وجهه السياسي، فوافق على عدم غزو كوبا، كما أصدر تعليمات لشقيقه - روبرت كينيدي - بأن يعد الاتحاد السوفييتي سرًّا بسحب الصواريخ الأمريكية من تركيا، والتي يمكن أن تصل إليهم بسهولة بعد بضعة أشهر.

ربما ينطوي «جوهر القرار» على جوانب من النماذج الثلاثة. ومهما كانت النسبة في هذا المزيج، فإن قرار إطلاق حصار بحري - رغم قلة مخاطره مقارنة بالهجوم الجوي - كان له صعوباته الهائلة ومخاطره الحتمية. وكان حجم ونطاق تلك المخاطر من النوع الذي لا يمكن معه ضمان نجاح أية عملية لصنع القرار، وبالتأكيد لا تضمن الأمان أو حتى النجاة. تعتبر نماذج أليسون الثلاثة تنويرية عند تطبيقها على الوضع الأمريكي خاصةً في هذا المثال. ولكن هناك مخاطر في التطبيق العالمي على الرغم من أوجه التشابه الظاهرية بين مختلف الظروف والبلدان.

تأملات مختصرة

إن المثال الذي استخدمه أليسون الخاص بأزمة الصواريخ الكوبية، وتحليل الوضع السوفييتي كما ورد في كتابه كان مجرد تكهنات. فنحن لا نعرف آلية نظام صنع القرار لدى خروتشوف أو الأهمية التي منحها لأي جزء من الأزمة، أو كيفية تقييم سياسات وإنذارات الولايات المتحدة أو كيف ميز بحساباته المنطقية الخدعة من الحقيقة. نحن لا نعرف نوع المستشارين المتخصصين الذين استعان بهم، وما يمثلونه من فروع الحكومة والجيش، فوق كل ذلك، نحن لا نعرف الدور الذي لعبه الحزب الشيوعي

والمكتب السياسي، ويُعتبر تحليل الوضع السوفييتي أصعب كثيرًا من تحليل الوضع الأمريكي بسبب وجود حكومة وأيضًا مفوضية على الحكومة لكلٍّ منهما سياستها وعملياتها البيروقراطية والتنظيمية.

ليس لدينا شهادة بليغة من شقيق خروتشوف الأصغر، مثل تلك التي قالها روبرت كينيدي لتنص رسميًّا على كيفية قيام مجموعة من الرجال المحترمين في تقرير مصير العالم.

وأصبح ما أطلق عليه النقاد الأمريكيون «الكرملينولوجي» الذي يحلل نوايا السياسة الخارجية لموسكو لعبة تنطوي على أعمال وأشكال غامضة من المعرفة.

في حالة الصين مع بدايات الحرب الباردة خاصةً بعد أن طردت الحركة المكارثية المناهضة للشيوعية جون سرفيس وأغلبية علماء الصينيات ومتحدثي اللغة الصينية من وزارة الخارجية، لم يكن هناك سبيل للولايات المتحدة لتفسير السياسة الخارجية الصينية بشكل موثوق به. فقد جعلت الأجهزة الحكومية والحزبية والعسكرية المنفصلة التي تعتمد كلٌّ منها على الأخرى حتى يومنا مراقبة بكين عملية خطرة، الأمر الذي زادت خطورته الآن بشكل ملحوظ بإضافة الآليات المالية والاقتصادية الهائلة للصين التي تضع نظامًا عالميًّا جديدًا للهيمنة الصينية.

أما في حالة طهران، يصل المحلل وإن كان خبيرًا في الإسلام الشيعي محاولًا فهمها في الآونة الأخيرة بأساليب السلطة المضطربة والضوابط والتوازنات شديدة التعقيد في المتاهة الدستورية والدينية التي تمثل سياستها إلى جانب واحد فقط من كيفية سعي طهران إلى التعامل مع المفاوضات بشأن القوة النووية، هذا بالإضافة إلى المهارات الهائلة لدبلوماسييها الذين يمثلون بكل المقاصد والأغراض لغزًا جعل المفاوضات مع النظام شيئًا بعيدًا عن أي نوع من العقلانية أو العلمانية أو الحسابات.

وأخيرًا، في حالة دولة زامبيا الإفريقية، عندما دخل رئيسها كينيث كاوندا – بمشورة الرؤساء الأفارقة الآخرين – في مفاوضات مع رئيس جنوب إفريقيا الجديد فريدريك وليام دي كليرك عام ١٩٨٩، كان ذلك دون أي اعتبار لجهاز السياسة الخارجية الخاص به. لم تكن هناك عمليات تنظيمية أو سياسة حكومية، فقد قام بكل شيء بنفسه، ولم يكن لديه أساس لاتخاذ إجراء عقلاني. لم يكن لديه مذكرة إحاطة واحدة عن دي كليرك (كان دي كليرك يحمل خمسة مجلدات من المذكرات حول كاوندا). قام كاوندا بالمفاوضات معتمدًا على حدسه وثقته الكبيرة في القوة الأخلاقية التي أقنع نفسه أنها يمكن أن تحرك جبل الدولة العنصرية. لا يمكن أبدًا تحليل تلك اللحظة الحاسمة في السياسة الخارجية الزامبية والتي كان لها نفس الدور في تسريع نهاية الفصل العنصري باستخدام أي نموذج أو مزيج من نماذج أليسون.

التشكيلات الاستطرادية والسياسة الخارجية

مع تطور نظرية العلاقات الدولية منذ عام ١٩١٨، ظهرت مدارس فكرية متنافسة لكن متداخلة. ورغم ذلك بقيت الدولة في مكانها كعنصر مركزي فاعل، مع الاختلاف حول مدى كونها الفاعل الوحيد. أكدت المدارس التي تركز على التعددية أهمية المنظمات الدولية وجماعات المواطنين. أما المدارس البنيوية فأكدت على أن الدولة تعتمد على قوى أخرى، مثل رأس المال والطبقية. وفي الآونة الأخيرة، استثمرت ما عرف بالمدرسة الإنجليزية الواقعية على أساس تاريخي محدث، حيث يُقدِّم تاريخ الدولة سياقًا لتحليل قراراتها(٥). أضافت مدرسة كوبنهاغن أشكالًا استطرادية إلى السياق التاريخي، فكيف تبني الدولة الخطاب وكيف تُبنى بدورها من خلال الخطاب

(٥) Barry Buzan, *An Introduction to the English School of International Relations: The Societal Approach* (Cambridge: Polity, 2014).

السائد الذي له تأثير كبير على صياغة السياسة الخارجية[٦]. وعليه، فإن فكرة مدرسة كوبنهاغن هي أنه يلزم وجود آلية حكومية تقوم بالصياغة الاستطرادية وتعزيزها – الذي يفوق جهاز السياسة الخارجية والدبلوماسية – وتربط السياسة الخارجية بشكل أوثق بمخاوف الدولة الرئيسية، أي لا يمكن فصلها عن متطلبات السياسة الداخلية. وسوف نتناول لاحقًا في هذا الكتاب رأي أوريل أبولوف في القوى الاستطرادية بإسرائيل، وكيف أدت إلى «أمننة» الدولة وقواها وسياستها الخارجية.

التأمل الختامي: الشرق الأوسط كمزيف أو مناهض لنظام الدولة الوستفالية

لا تزال دبلوماسية العالم تركز على منطقتين؛ الأولى: ضم الرئيس الروسي بوتين لشبه جزيرة القرم ونظرته التوسعية «الجديدة» للسياسة الخارجية لصالح دولته التي ما زالت مسلحة نوويًّا على نطاق واسع، وسنقوم بتناول ذلك لاحقًا. أما الثانية، فهي الشرق الأوسط مع الاضطراب الناجم عن الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، وبالإدراك الجديد بأن بعض الجهات بدول المنطقة قد يكون لها دور أو على الأقل ترضى بقيام كبار موظفيها ومؤسساتها بدور مزدوج. كما يبث هنري كسنجر في أحدث كتبه (وربما آخرها) شكوكه عن كون المملكة العربية السعودية عضوًا ظاهريًّا في النظام الوستفالي، ولكن تقوم لأسباب طائفية بدعم نشر ما يبدو كنظام الدولة الإسلامية[٧]. وسنتناول ذلك أيضًا في نهاية الكتاب. ويعتبر ذلك تحديًا حقيقيًّا لأسس نظرية العلاقات الدولية وتعقيدًا كبيرًا في صياغة السياسة الخارجية

(٦) Barry Buzan, Ole Wæver and Jaap de Wilde, *Security: A New Framework for Analysis* (Boulder, CO: Lynne Rienner, 1998).

(٧) Henry A. Kissinger, *World Order: Reflections on the Character of Nations and the Course of History* (London: Allen Lane, 2014): 134-141.

والدبلوماسية. إنه تحدٍّ للنظرية، حيث سعى صلح وستفاليا إلى علمنة النظام الدولي، وهناك بعض الأدوات المتطورة لوضع المفاهيم لعالمٍ متقلب، خاصةً أنه لا يتحول نحو وضعه المسيحي السابق وإنما للإسلام. فمنذ مئات السنين لم يشهد العالم صدامًا بين العالم المسيحي الغربي والعالم الإسلامي. كما يعتبر تحديًا للسياسة والممارسة؛ لأن القيم الطائفية لا تتناسب إطلاقًا مع أي من النماذج التي طرحها شخص مثل أليسون. إذا وجد كينيدي ومستشاروه بحساباتهم احتمال حدوث لحظة من الوضوح العقلاني تجبر الاتحاد السوفييتي على التراجع نظرًا لإدراك التكلفة، فليس هناك ما يضمن أن التكاليف المادية ستغلب على القيم المرجوة من العناية الإلهية.

٢

أقدام من حديد وطين: السياسة الخارجية الأمريكية والبريطانية والدبلوماسية من تغيير نظام إلى آخر

هناك نظرة تنبؤية مفضلة للكثير من الطوائف المسيحية حول نهاية العالم، حيث يتم في النهاية تدمير النظم الدولية البشرية عن طريق الصخرة السماوية التي تملأ الأرض بعظمتها وقدسيتها الدائمة. تتماشى هذه الرؤية تمامًا مع رؤى داعش، بينما تعتبر النسخة المسيحية أوضح في سفر دانيال (٢: ٣١-٣٥)، حيث يحلم الملك البابلي بتمثال عظيم مصنوع من معادن مختلفة ذي رأس من أثمن المعادن، ثم تتدرج قيمة المعدن نزولًا من الجذع حتى القدمين المصنوعتين من مزيج الحديد مع الطين. وهناك عند خطوط الصدع بالقدمين تصطدم الصخرة السماوية، وينهار معها التاريخ الكامل للإمبراطوريات البشرية والنظم العالمية. يفسر النبي دانيال حلم الملك، لكن الطوائف ذات النبوءة السوداوية تبالغ في وصف ذلك التفسير. فلا يتفق الجميع على هوية القدمين، لكن هناك رأيًا واحدًا يشير إلى أن الرأس الذهبي هو النظام العالمي البابلي، والصدر الفضي هو النظام العالمي الفارسي، والوسط البرونزي هو النظام العالمي اليوناني، والأرجل الحديدية هو النظام الروماني. والمزيج الضعيف الذي تُصنع منه القدمين هو النظام العالمي الأنجلو-أمريكي. يمثل هذا خطًّا تاريخيًّا يهوديًّا ومسيحيًّا وغربيًّا خاصًّا جدًّا إذ لا يُذكر نظام عالمي منغولي أو إسلامي أو إمبراطورية صينية، أو روسية أو عثمانية، فهناك فترة طويلة بين سقوط روما وظهور الإمبراطورية البريطانية، كما أن هناك أشكالًا مختلفة لعلاقات بريطانية بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث بدأت بالسيادة الاستعمارية لتصبح حاليًّا من الحاشية التابعة. وبالرغم من ذلك، فإن صورة تحالف غير مستقر - الحديد والطين - تعكس

حقيقة معاصرة. ولا يقتصر على داعش الرغبة في أن تكون تلك الصخرة السماوية، فأحيانًا يكون للصين وروسيا المنبعثة الميل لتكونا مثل هذه الصخرة. ربما يشعر الاتحاد الأوروبي – وليس بريطانيا – بالفعل أنه يشكل الطين الذي يسعى إلى الارتباط مع الولايات المتحدة.

هناك العديد من الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة تستغرق وقتًا طويلًا لتصبح على ما هي عليه حاليًا. فلم تسمح ثورتها التي قامت عام ١٧٧٦ بقيام نظام رئاسي كما نعهده الآن حتى عام ١٧٨٩، ولم يتم حتى ذلك العام التصديق على وثيقة الحقوق أو بمعنى آخر ١٢ من ٣٩ حقًّا مقترحًا. وحتى عام ١٩٩٢، ظل أحد تلك الحقوق معلقًا، وكان يتعلق بتعيين أعضاء الكونغرس كوسيلة لتحديد حجم مجلس النواب، كما أن التصويت الذي يعتبر الآن رمزًا للديمقراطية لم يكن معممًا، حيث تم استبعاد فئات مختلفة من المواطنين من حق الانتخاب حتى الستينيات. وقد تمثلت «الديمقراطية» الأصلية في حق التصويت لكل ذكر أبيض بالغ، ولم تعمم – حتى ضمن هذه المجموعة – حيث بقيت بعض الشروط حول الملكية حتى عام ١٨٥٠، وبقيت بعض هذه المتطلبات حتى عام ١٩٦٦. أما السود، فكان عليهم الانتظار حتى عام ١٨٧٠ والحرب الأهلية التي تلت ذلك، والنساء حتى عام ١٩٢٠، والأمريكان الأصليون حتى عام ١٩٢٤. ولم يتمكن سكان العاصمة من التصويت في الانتخابات الرئاسية حتى عام ١٩٦١. وبعيدًا عن حق الانتخاب، حُرم السياسيون السود من الحقوق السياسية الكاملة في أجزاء كثيرة من الولايات المتحدة، إلى أن قامت حركة الحقوق المدنية في الستينيات، وما زال العرق يشكل أساسًا للتفرقة في البلاد إلى اليوم. كما رفضت حملات مكارثي المناهضة للشيوعية في الخمسينيات الحريات المدنية للعديد من البيض.

وكما كانت السياسة الداخلية بطيئة في تطوير الصورة الحالية للولايات المتحدة، كان التطور على صعيد السياسة الخارجية أيضًا بطيئًا. على الرغم من إعلان استقلالها، بقي على الولايات المتحدة الناشئة أن تتغلب على العقبات الدبلوماسية التي وضعتها بريطانيا في طريقها. فقد ترددت الكثير من القوى الأوروبية في الاعتراف بها. أما فرنسا فقد منحتها الاعتراف في ١٧٧٧ نظرًا لكراهيتها لبريطانيا وأيضًا لأن الضباط الفرنسيين مثل لافاييت خدموا إلى جانب القوات الأمريكية المناهضة للاستعمار. تبع ذلك تحالف عسكري رسمي عام ١٧٧٨. ولكن بأصداء ما قامت به الملكة إليزابيث الأولى التي واجهت العداء الدبلوماسي والسياسي الهائل من إسبانيا الكاثوليكية واستقبلت السفير المغربي في بلاطها؛ كانت المغرب هي الدولة الأولى بعد فرنسا في منح الاعتراف عام ١٧٧٨. عرضت المغرب على الولايات المتحدة الاعتراف مقابل سعر محدد، مما يجعله في واقع الأمر ابتزازًا، فإذا سددت الولايات المتحدة للمغرب مبلغًا معينًا، ستعترف بها المغرب، وتتعهد بعدم مهاجمة قراصنتها للسفن الأمريكية.

كان من الشائع في ذلك الوقت وجود علاقة بين دولة رسمية وأسطول قراصنة على استعداد لبيع خدماته لدولة حاضنة. على سبيل المثال استغل الإمبراطور الصيني كبار القراصنة كمرتزقة لهزيمة الهولنديين في فورموزا (تايوان حاليًّا)، وربما للحفاظ على تابعية مملكة أوكيناوا للصين بدلًا من اليابان. كما استغل أندرو جاكسون نفس المساعدة العسكرية لقائد القراصنة جان لافيت في الدفاع عن نيو أورلينز في الهجمات البريطانية المتكررة عام ١٨١٢.

إن الولايات المتحدة ظلت حتى نهاية القرن الثامن عشر - رغم حصولها على اعترافات دبلوماسية بطيئة - تدفع فدية أو تتفاوض عليها مع دول شمال إفريقيا لتأمن أساطيل قراصنتها. وفي النهاية بحلول عام ١٨٠٠، تفاقمت الأمور حين رفعت حكومة طرابلس (ليبيا الآن) السعر المطلوب. وكإجراء احترازي ضد من عرفوا

بـ«القراصنة البربر» من الجزائر والمغرب وطرابلس وتونس، بدأت الولايات المتحدة ببناء ست فرقاطات عام ١٧٩٤ فيما يعتبر ولادة البحرية الأمريكية. ثم قامت عام ١٨٠٠ بحصار طرابلس. حينها أعلنت طرابلس الحرب ضد الولايات المتحدة، ثم تبعتها المغرب عام ١٨٠٢. أرسلت الولايات المتحدة عام ١٨٠٣ قوات إلى طرابلس في أول توغل عسكري من قبل الولايات المتحدة على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، وفي عام ١٨٠٥، أنجزت الولايات المتحدة خططًا لتغيير النظام في طرابلس وهبط جيش من البحرية الأمريكية والمرتزقة بالقرب من المدينة. ولكن تم تجنب تغيير النظام بفضل دبلوماسية اللحظة الأخيرة، بينما بدأت مرحلة جديدة دخلت فيها القوات والتقنيات العسكرية الأمريكية إلى العالم الأوسع.

لكن هذا العالم الأوسع كان أغلبه كتلة اليابسة الأمريكية في القرن التاسع عشر، حيث زاد الحجم الجغرافي للولايات المتحدة إما بالحرب أو بالاتفاقيات الاقتصادية مع الدول الأخرى غالبًا بأمريكا اللاتينية - ومن هنا وُلِدت الصورة الدولية لأمريكا المندفعة. وقد تعمدت وثيقة مونرو الصادرة عام ١٨٢٣ تحذير القوى الأوروبية من السياسات الخارجية التدخلية في أمريكا اللاتينية. وبهذا أصبحت المنطقة في النطاق الأمني وبالتالي في مجال النفوذ الأمريكي. كان أول قرن من الدبلوماسية الأمريكية معني بالتوسع والتعزيز الجغرافي. ضاعفت صفقة لويزيانا (مع فرنسا) عام ١٨٠٣ حجم الولايات المتحدة (حدود لويزيانا كانت مختلفة وقتها)، تنازلت إسبانيا عن فلوريدا عام ١٨١٩، ثم تم ضم تكساس عام ١٨٤٥، وكان دور الميليشيات الأمريكية مثل ديفي كروك في ألامو - سمة من سمات الاحتلال والاستيلاء. جاءت نهاية الحرب مع المكسيك عام ١٨٤٨ بكاليفورنيا وأريزونا ونيو مكسيكو إلى الولايات المتحدة. ثم تم شراء ألاسكا من روسيا عام ١٨٦٧، وضم هاواي عام ١٨٩٨، وكان للنصر في الحرب مع إسبانيا عام ١٨٩٨ تأثير كبير على الفلبين وبورتوريكو وكوبا. فخضع خليج جوانتانامو للولاية القضائية الأمريكية عام ١٩٠٣.

لم تترفع الولايات المتحدة عن استخدام الميليشيات غير الرسمية. فهناك من سبق بلاك ووتر. اشتهرت عملية اقتحام كوبا عام ١٨٩٨ من قِبَل فرقة «راف رايدرز» (Rough Riders) التابعة لثيودور روزفلت في الأيام التي سبقت رئاسته الولايات المتحدة كرمز للبطولة والشجاعة، مما رفع من شهرة روزفلت كرجل أفعال. من الإنصاف أن نقول بأن الولايات المتحدة استغرقت بعض الوقت لتستقر كدولة وستفالية تراعي حدود ممارساتها ضد الدول الوستفالية الأخرى. قد يعتقد البعض أن التوسع في الرقعة الأمريكية قد انتهى في القرن العشرين – خاصةً مع انتخاب وودرو ويلسون المثالي والعقلاني ولكن هذا غير صحيح. ففي السنوات التي سبقت عام ١٩١٨، كانت هناك قوات أمريكية في نيكاراغوا وجمهورية الدومينيكان وهايتي. بذل ويلسون جهدًا ضائعًا للتدخل في المكسيك عام ١٩١٣. وقال جملته الشهيرة: «سأعلم جمهوريات أمريكا الجنوبية كيفية انتخاب رجال صالحين»[٨]. كان الشعور بالهيمنة الإقليمية والاحترام الهائل للقيم الديمقراطية – حتى مع فرضها بشكل غير ديمقراطي – سمة من سمات احترام الولايات المتحدة لذاتها وللعالم الخارجي. دخلت المثالية والغرور العلاقات الدولية الأمريكية عندما وَصَفَ ويلسون إسهامه (الهائل) بعد الحرب العالمية الأولى ومفاوضات السلام التي شارك بها قائلًا: «وأخيرًا بدأ العالم أن يعرف أمريكا كمنقذة»، كما سنتناول في الفصل الأخير.

وقد ألهمت هذه المساهمة كما أشرنا في الفصل السابق أساس العلم الأكاديمي للعلاقات الدولية. لكن ويلسون قاد الولايات المتحدة أيضًا إلى الحرب العالمية الأولى لتصبح نقطة التحول التي هزمت في النهاية ألمانيا. لقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز يوم ٣ إبريل ١٩١٧ عنوانًا لافتًا «يدعو الرئيس إلى إعلان الحرب وقوات بحرية

(٨) Statement of 1913, see Paul Horgan, *Great River: The Rio Grande in North American History* (Middletown, CT: Wesleyan University Press, 1984): 913.

أقوى وجيش جديد من ٥٠٠,٠٠٠ جندي وتعاون تام مع أعداء ألمانيا». كانت مثاليته مصحوبة بالسلطة، وانعكاسها لم تكن فقط في أمريكا اللاتينية والحرب الأوروبية. ومن السخرية أن ممارسي السلطة رفضوا الاعتراف بحقوق الدول الناشئة المضطربة.

لقد كانت الصين رغم ضخامتها الجغرافية وإرثها التاريخي الهائل تواجه صعوبة كبيرة في الظهور للعالم الحديث خاصةً بسبب أهمية تراثه، وقد شاركت القوات الأمريكية في قمع انتفاضة الملاكمين الصينيين في أوائل القرن العشرين، فاعترفت عام ١٩١٧ بموجب اتفاقية لانسنغ إيشي بمطالبة اليابان بمصالح خاصة في الصين، فيما أُعتبر اعترافًا بالحقيقة التوسعية اليابانية في الصين وإستراتيجيتها النامية للحكومات المتعاملة معها. كانت الولايات المتحدة في السنوات التي أعقبت ويلسون تحت رئاسة فرانكلين روزفلت أكثر تعاطفًا مع الصين، حيث توسعت اليابان بشكلٍ كبير في الأراضي الصينية، وارتكبت الكثير من الجرائم الوحشية، لكنها لم تشن حربًا ضد اليابان حتى هجوم القوات الجوية اليابانية على ميناء بيرل هاربور عام ١٩٤١ الذي أغرق عددًا ضخمًا من السفن الحربية الأمريكية غير المسلحة. وكانت الحرب العالمية الثانية هي السبب في أن تحول الولايات المتحدة بالفعل أوج مجدها وغرورها السابق إلى حقيقة لتصبح بذلك قوة عظمى في العالم.

أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة عقب الهجوم على ميناء بيرل هاربور، وبالتالي أصبحت الولايات المتحدة عضوًا مشاركًا بكل قوته في الحرب العالمية الثانية. لكن حتى قبل ذلك، أعلن روزفلت عن حرياته الأربعة - الحرية من الرغبة والخوف وحرية التعبير والدين وطرحها في القمة الأنجلو أمريكية التي أقيمت بالقرب من نيوفاوندلاند، حيث تم توقيع ميثاق الأطلسي الذي أُعتبر وثيقة الحريات والمثالية وأصبح الهدف المعياري لخوض الحرب. أصبحت الولايات المتحدة لاعبًا قياديًّا في تلك الحرب، وتبوأت مكانها كواحدة من القوى العظمى في مؤتمرات القمة لرؤساء الحلفاء في الدار البيضاء وموسكو والقاهرة وطهران وبريتون

وودز ويالطا وبوتسدام التي رسمت مسار الحرب، وبالطبع طريقة التصرف في العالم وتقسيمه بعدها. كان لمؤتمر سان فرانسيسكو الذي أُقيم بعد استسلام ألمانيا بفترة وجيزة دور في إقامة منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن التابع لها، وبالتالي قدرتها على إجراء الدبلوماسية بتناغم بينما يحتل أكبر تجمع للدول الأعضاء الجمعية العامة.

والأهم من ذلك، انتهت الحرب بتملك الولايات المتحدة الأسلحة النووية التي حصلت عليها واستخدمتها ضد ناجازاكي وهيروشيما، وتعتبر منتهى القوة العسكرية التي يمكن لدولة أن تستخدمها في السعي لتحقيق مصالحها.

وبالإضافة إلى ذلك، استخدمت الولايات المتحدة بعد الحرب من خلال خطة مارشال قوتها الاقتصادية لإعادة بناء أوروبا الغربية. وقد كان ذلك من أجل الحصول على حصن متطور ضد الشيوعية باعتبارها مصدر قلق لأوروبا ذاتها. لكنه أسفر أيضًا عن التأثير الهائل للولايات المتحدة على التجارة عبر الأطلسي التي أعقبتها، وخلقت الأسواق للصناعات الأمريكية التي نمت بشكل كبير خلال الحرب. وقد تضاعف الإنتاج الصناعي الأمريكي نتيجة المنافسة على إنتاج الأسلحة والآلات؛ مما أدى للتقدم الاقتصادي السريع. لم يمتد سخاء الولايات المتحدة الأمريكية ليشمل إعادة بناء الاتحاد السوفييتي الذي لم يلق التقدير الكافي عن تضحياته الهائلة خلال الحرب العالمية الثانية لفترة طويلة جدًّا. لكن كان عليه أن يدرك أن آلية هائلة من المواجهة كانت تبنى على أعتابه. كان بدوره يناضل من أجل إعادة البناء وتحقيق نوع من التكافؤ مع الولايات المتحدة فيما يتعلق بالأسلحة النووية، فربما كان من الممكن تجنب الحرب الباردة التي بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أو حتى الحد من حدتها في حال حصول الاتحاد السوفييتي على نوع من الشمولية. ولكن بدلًا من ذلك قدم حصار الاتحاد السوفييتي لبرلين وجهود الإغاثة الجوية بالغرب عام ١٩٤٨–١٩٤٩ لمحة عن مستقبل أصبحت فيه المواجهات بشأن الصواريخ النووية في كوبا حتمية. تَشَكَّل حلف الناتو عام ١٩٤٩. وسرعان ما اشتدت الحرب الباردة ليس مباشرة ضد الاتحاد

السوفييتي، وإنما ضد شريكها الشيوعي الصين وحلفائها. ثم نشب الصراع في كوريا وفيتنام التي كلفت الولايات المتحدة في الحرب البرية أرواح العديد من الشباب الذين بلغوا السن القانونية من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية.

كانت أمريكا اللاتينية دائمًا على القائمة الطويلة للمخاوف الأمريكية العالمية؛ إذ ظلت موقعًا للتدخل تمامًا مثل الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، حيث بدأت السياسة الخارجية الأمريكية وجهودها نحو تغيير النظام والطرق الدبلوماسية. وكما ذكرنا من قبل، فقد كان غزو خليج الخنازير بكوبا عام ١٩٦١ سابقًا لأزمة الصواريخ الكوبية. بقيت الولايات المتحدة على أفكارها التوسعية حتى غزت جرينادا عام ١٩٨٣ لتغير نظام الحكم بها بالرغم من أن حكومة موريس بيشوب اليسارية التابعة للدولة الكاريبية الصغيرة لم تكن بأي شكلٍ من الأشكال موضع تهديد للولايات المتحدة.

القراصنة البربر الجدد بعد الحرب الباردة

مع زوال الشيوعية بعد عام ١٩٨٩ – بالرغم من الخطاب الفلسفي «لنهاية التاريخ» وانتصار الليبرالية الديمقراطية – أصبح للقوة العظمى الوحيدة بالعالم سياسة خارجية وجهاز تخطيط عسكري موجه نحو العدو، حيث لم يرق التواجد الفردي على القمة للولايات المتحدة بتقاليدها وممارساتها واستعدادها التنفيذي المتطور الذي يتطلب وجود تهديد أو منافس، فقد كان على السياسة الخارجية إلى حد ما إيجاد التهديدات أو رفع تلك التي اتخذت المرتبة الثانية بعد الاتحاد السوفييتي، وإضفاء نفس النوع من الصفات التنظيمية عليها. كما تم تعزيز الردود «المخزونة» بالفعل في غياب التهديدات المرجوة، ولم يتم التفكير كثيرًا في تأمل التهديدات غير التقليدية أو التي لا يمكن التعامل معها بالمخزون.

لم تنتظر الولايات المتحدة طويلًا لظهور العراق المخيب للآمال وغزوها للكويت، وأعني هنا بكلمة «المخيب للآمال» أن العراق لم يكن يُشكِّل تهديدًا محتملًا للولايات المتحدة، بل لم يكن من المحتمل أن تُباع الموارد البترولية الكويتية للكثيرين، حيث كانت الولايات المتحدة على أي حال قادرة على التعامل مع موردين آخرين بأقل قدر من الإزعاج. لقد كان ذلك بمثابة قضية حقيقية للدفاع عن دولة في النظام الوستفالي. وبالرغم من أن الكويت كانت تُعتبر قطعة أثرية في خطة تقسيم الشرق الأوسط التي رسمها البريطانيون والفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى، ولن يضر أن تصير جزءًا من العراق، لكن أخل ذلك الغزو بتوازن القوى الإقليمية؛ فلم يعد كما كان في أغلب الأوقات بين الدول السنية والشيعية، وإنما داخل الدول السنية نفسها. ولم تتقبل المملكة العربية السعودية توسع العراق من حيث الأرض والدخل والقوة. والجدير بالذكر هنا، أن سوريا، الرفيق الأيديولوجي للعراق، لم تتقبل ذلك هي الأخرى. لقد قاد حزب البعث العلماني كلًّا من العراق وسوريا إلى العالم الحديث في فترة ما بعد الحرب، حيث كان للدولتين خصائص مشتركة مثل أهداف التنمية الوطنية التي كانت تكنولوجية لا دينية، وتميل في إطار الحكم الديكتاتوري نحو التنمية الحديثة للمرأة. لكن سوريا اصطفت خلف التحالف الكبير الذي اجتمع تحت قيادة الولايات المتحدة لطرد العراق من الكويت. وهنا، كانت السياسات الخارجية للدول العربية الإقليمية مدركة بشكلٍ مُوَّحد:

١- حقيقة أن كياناتها وحدودها كدول كانت حديثة العهد، وليست آمنة تمامًا كما حدث مع سوريا وحربها مع إسرائيل مثلًا، وبالتالي كان هناك دافع وستفالي حقيقي.

٢- إن الولايات المتحدة الأمريكية الآن مهيمنة على العالم، ولكن حتى الدولة المهيمنة تحتاج حلفاء واضحين وراغبين. وقد تم الكشف عن هشاشة التحالفات والشراكات من خلال حالة العراق من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨، حيث

شجعت الولايات المتحدة في الثمانينيات العراق وموّلتها مع المملكة العربية السعودية لشن حرب على إيران الثورية، وبعد ذلك استغنت عن خدماتها. وبالتالي قد تتحول الدولة المهيمنة الجديدة إذا تم تجاوز قواعد عملها التي تملي سلوك الدولة ودبلوماسيتها في نطاق وستفالي، على الأقل في تلك المناطق التي لم تقم فيها الولايات المتحدة بنشر تدخلات غير وستفالية.

٣- وأخيرًا، قد ينطوي الأمر على عائد مادي حيث يمكن إعادة إمداد الجيوش وتحديث المعدات نظير عملية مشتركة بالحجم المتوقع في الكويت.

ما زال شعور الولايات المتحدة نحو هذه الاعتبارات غامضًا، ولكن كان جمع مثل هذا التحالف المسلح المكثف ضد العراق إنجازًا دبلوماسيًّا كبيرًا. فقد كانت المرة الأولى والأخيرة التي أدارت فيها الولايات المتحدة مثل هذا الأمر، حيث تضمنت الحرب الأخيرة في أفغانستان قوات الناتو كحلفاء وغيرهم ممن كانوا دائمًا في المعسكر الغربي. وكان السوريون والدول العربية الأخرى غائبين بشكل واضح من حرب الخليج الثانية التي لم تشن من أجل الدفاع عن دولة وستفالية، ولكن تغيير النظام داخل عضو معترف به بالنظام الوستفالي، وهو الأمر الذي صعب حتى على قوة غربية عظمى مثل فرنسا دعمه.

ماذا حدث من أجل هذا التحول من انضباط الولايات المتحدة الوستفالي في عهد جورج بوش الأب في حرب الخليج الأولى عام ١٩٩٠ حيث كان أمره لقوات التحالف واضحًا بعدم التقدم نحو بغداد والانسحاب إلى الكويت المحررة إلى ما حدث في حرب الخليج الثانية عام ٢٠٠٣ بعد مرور أكثر من عقد بقليل، حيث أصر جورج بوش الابن ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير على التقدم نحو بغداد وسط صدمة ورعب العالم؟ كان نهج توني بلير - كما سنتناول لاحقًا - أن يسعى لتحقيق رغبته في أن يراه العالم مع القوة المهيمنة، مما يوازن موقف بريطانيا العالمي المتضائل، لكن المزاج السائد في

الولايات المتحدة الذي يدعم التدخل العسكري بشدة وخاصة ضد عدو «مؤكد» منذ حرب الخليج الأولى قد استفاد من تحول استطرادي ضخم داخل الولايات المتحدة. تعتبر الولايات المتحدة مثالًا حقيقيًّا لنهج مدرسة كوبنهاغن للأسس الاستطرادية لصياغة السياسة الخارجية. وكان لمحاضرة صامويل هنتنجتون عام ١٩٩٣، ومقالته بعنوان «الشئون الخارجية» المبنية على هذه المحاضرة[٩]، وكتابه الذي صدر عام ١٩٩٦ بناءً على المقال بعنوان **صراع الحضارات**[١٠] تأثير مُوجٍ واستفزازي للجدل بالولايات المتحدة. فالكتاب يتناول فكرة التقسيم الجديد للعالم، وأنه تقسيم عدائي؛ فيتعين على السياسة الخارجية الأمريكية أن تحمي نفسها بطريقة فعالة ضد الأصولية الإسلامية المدولة، وكذلك بالطبع تحمي نفسها من الجدل الذي تولد عنه. وظهر للولايات المتحدة عدو عسكري جديد بعد الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك في سبتمبر ٢٠٠١، إذ جاءت الهجمات من دولة بعينها، وهي أفغانستان رغم أن تنظيم القاعدة الذي قام بتنفيذ الهجوم كان في الوقت ذاته كيانًا غير حكومي، ويتعدى نطاق الدولة الواحدة. وقد شنت قوات الولايات المتحدة وحلف الناتو غزوًا على أفغانستان قبل نهاية عام ٢٠٠١، واستولت بسهولة على العاصمة كابول.

ثم توالت صياغة صورة شيطانية للأعداء الجدد، فطالبان كئيبة وقمعية، والقاعدة شريرة ومخادعة، وتسعى إلى الخراب الدولي، أما العراق فرئيسها طاغية يسعى للإبادة الجماعية بأسلحة الدمار الشامل. فصار الأعداء هم قراصنة البربر في الألفية الجديدة المبتزين الخونة والمهددين، وفوق كل ذلك شديدي الاختلاف. بقدر ما دخلت تلك الصور في الخطاب العام، حيث تعمد الرئيس جورج بوش الابن أن تكون جزءًا من

(٩) Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations?" *Foreign Affairs* 72, no. 3 (Summer 1993): 22-49.

(١٠) Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York, NY: Touchstone, 1996).

خطابه الرسمي مع خلال الخطاب الذي ألقاه بعنوان «محور الشر»، ربما أيضًا ساهمت في تشكيل السياسة الخارجية حتى لو بشكل مبدئي، ولكنها لم تضف شيئًا لتطور هذه السياسة. وهنا تكمن الصعوبة الأساسية لمدرسة كوبنهاغن، فما على المحك هنا ليس فكرة أن الخطاب لا يشكل شيئًا، وإنما ما يمكن أن تشكله أنواع الخطابات المختلفة. سوف نرى لاحقًا فيما يتعلق بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط بأن ما ساهم في تشكيله يعد بعيدًا كل البعد عن المحافظة على أمن المنطقة والعالم أجمع.

وقد لعبت الولايات المتحدة دورًا محوريًّا في الشرق الأوسط بشكل دائم، فلم يعترض وودرو ويلسون على إعلان بلفور الذي اقترح تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى فلسطينية، لكن اعترضت الولايات المتحدة على الجهود الإنجليزية الفرنسية الإسرائيلية المشتركة للاستيلاء على قناة السويس عام ١٩٥٦ بعد أن قامت مصر بتأميمها، وأجبرت الجيوش الغازية على الانسحاب. كما سعى هنري كسنجر لإقامة توازن للقوى بين مصر وإسرائيل في أعقاب الأعمال العدائية من خلال توفير المساعدات العسكرية الليبرالية لكليهما - وإن كانت إسرائيل تتلقى المزيد مما جعل توازن القوى يميل قليلًا لصالحها. وقد ظلت إسرائيل ومصر لفترة طويلة أكبر المستفيدين من المساعدات العسكرية الأمريكية، ولكن بحلول عام ٢٠١٠ كان صرف هذه المساعدات لصالح العراق أولًا (بقيمة ٦,٥ مليار دولار)، ثم أفغانستان (٥,٦ مليار دولار)، وإسرائيل في المركز الثالث (٢,٧٥ مليار دولار). ثم مصر (١,٧٥ مليار دولار).

وجاءت باكستان في المركز الخامس (١,٦ مليار دولار). كان هذا حوالي ثلث إجمالي ميزانية المساعدات الخارجية أي ما يعادل ٤٠ مليار دولار، مما لا يضمن صمود القوات المسلحة العراقية أمام داعش، أو وقوف الجيش الأفغاني في وجه هجمات

طالبان، أو للقوات المسلحة الباكستانية التغلب على نسختها الخاصة من طالبان. ولكنها ضمنت بالتأكيد أن إسرائيل تمتلك كل المزايا العسكرية في الصراع المستمر ضد التطلعات الفلسطينية لإقامة دولة. ولكن لم يكن تمويل الوكلاء كافيًا، فكان أحد الأسئلة العويصة عن سياسة الولايات المتحدة الخارجية في ظل إدارة أوباما حول مدى التراجع أو التقدم في التدخل العسكري الأمريكي المباشر في ميادين، مثل أفغانستان والعراق وسوريا.

الدبلوماسية والتنين الصيني

وصف نابليون الصين بالعملاق النائم الذي ينبغي أن يحذر العالم من إيقاظه. وقد ظل العالم لوقت طويل يحاول إبقاء التنين نائمًا أو مقيَّدًا، حيث فرضت القوات الغربية واليابان على الصين عهدًا يطلق عليه الصينيون عهدًا من المعاهدات غير المتساوية والإذلال. كانت اليابان على وجه الخصوص هي التي احتلت منشوريا بالقوة، ثم اجتاحت في وقت لاحق بقوة السلاح أجزاءً أخرى من الصين في فترة الحرب العالمية الثانية، والسنوات القليلة التي سبقتها. لم تكن الحكومات والجيوش الصينية المنقسمة قادرة على الوقوف ضد القوات اليابانية التي تحركها التكنولوجيا بأسلحتها الحديثة وقياداتها الأمهر وقسوتها العسكرية. قدّمت الولايات المتحدة بعض المساعدة والمعونة إلى جيوش ماو الشيوعية، ولكن كانت الغالبية العظمى من المساعدات الأمريكية من نصيب القوات القومية لشيانغ كاي شيك. وعند هزيمته عام ١٩٤٩ أُجبِرَ على التراجع إلى تايوان، قامت أمريكا بنبذ النظام الشيوعي المنتصر دبلوماسيًّا، وحرمته من مقعده في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذي منح للحكومة القومية الضعيفة بتايوان، حيث كانت تايوان نفسها تحت حراسة الأسطول السابع للولايات المتحدة. وبذلك أصبحت الولايات المتحدة والصين في حالة مواجهة

دبلوماسية وعسكرية. وقد اتخذت تلك المواجهة منحنى دمويًّا حيث دعمت القوتان كوريا الشمالية والجنوبية في حرب أوائل الخمسينيات من القرن الماضي بقواتهما المسلحة ودون أي مقابل مادي.

لم يكن هنري كسنجر وريتشارد نيكسون حريصين على الخروج من حرب فيتنام فحسب، بل أيضًا على الخروج منها دون أي ضرر في الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي، حيث يمكن اعتبار كل هزيمة إهانة؛ لذلك تقربا إلى الصين عام ١٩٧١-١٩٧٢، مما دعم الصين في صراعها مع الاتحاد السوفييتي الذي قاد الحليفين الشيوعيين السابقين إلى منافسة أيديولوجية وسياسية مريرة، وأعطى شعورًا بالسلوك المنظم والمحسوب في آسيا بدلًا من التراجع غير المدروس عن حرب قصفت فيه الولايات المتحدة فيتنام الشمالية بقوة جوية هائلة، ومع ذلك لم تتمكن من هزم إرادتها لمهاجمة الجنوب وتوحيد البلاد.

على الرغم من أن حرب فيتنام لم تنحصر إلا بمناورات وأعمال عسكرية ضخمة، فقد كان التقارب مع الصين بطريقة ما يُمثِّل الدبلوماسية الأميركية في صورتها الأكثر تطورًا، حيث لا تمليها القيم أو الأيديولوجية، ولا تستند إلى القوة العسكرية أو الشراء الاقتصادي تجاه الصين. لقد كان تحالفًا ملائمًا تمكن بضربة واحدة من إضافة الضغوط على الاتحاد السوفييتي الذي أصبح الآن يتصارع مع الصين التي لم تعد قلقة من تهديد الولايات المتحدة، وضمان استقرار المشهد الآسيوي حيث تشعر الصين بالأمان بعد زوال العزلة الدبلوماسية؛ وعليه ستتصرف بطريقة أكثر مسئولية. هكذا حسبها كسنجر وقد كان ذلك بالفعل. كما أدرج الصين التي استعادت أخيرًا مقعدها في مجلس الأمن ضمن تضافر القوى العالمية الكبرى، حيث ستضطر حتى على مستوى الدول الكبرى للانصياع لبعض اتفاقيات وستفاليا بدلًا من الاستمرار في الخصومة.

وبالرغم من قدرة الولايات المتحدة على التعامل بشكل جيد في مثل هذه الحالة - ومن الجدير بالذكر أن الصينيين قد ردوا على رقي كسنجر بمثله - لا يمكننا قول ذلك دائمًا عن السياسة الخارجية والدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط، خاصة حيث تعنى بقتال الجهات الفاعلة غير الحكومية، وسنتتبع ذلك في الفصول القادمة. أما في الوقت الراهن، فتستحق العلاقة بين بريطانيا والولايات المتحدة بعض التعليقات.

القوة التي تسعى للانقياد

مع بداية الحرب الباردة، ساعدت بريطانيا الولايات المتحدة والحلفاء الغربيين الآخرين على إدارة الحصار السوفييتي لبرلين الغربية من خلال نقل الإمدادات الحيوية إلى السكان عام ١٩٤٨-١٩٤٩. كما حاربت إلى جانب الولايات المتحدة في الحرب الكورية من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣. ولكن لم تكن الجهود البريطانية الأخرى بعيدًا عن شراكتها مع الولايات المتحدة - دائمًا عظيمة أو ناجحة، فقد اتسمت إقامة دولة إسرائيل - بتفويض بريطاني حتى الاستقلال ١٩٤٥-١٩٤٨ - بالعنف والإرهاب وشكاوى الأمم المتحدة بعدم تعاون بريطانيا في الفترة الانتقالية. كانت حالة الطوارئ الملايوية ١٩٤٨-١٩٦٠ بتورط القوات البريطانية في حرب الأدغال ضد المتمردين الشيوعيين «ناجحة»، ولكنها أدت إلى اتهامها بالوحشية المفرطة. والأهم من ذلك، كما ذكر سابقًا، أدى التدخل في السويس عام ١٩٥٦ والعقاب من الولايات المتحدة إلى الانسحاب السريع لبريطانيا. وقد أدى كل ذلك إلى الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٨ والانسحاب البريطاني من ماليزيا وسنغافورة، فيما أطلق عليه وقف انعكاس السلطة الدولية «شرق السويس». أصبحت بريطانيا من دول شمال الأطلسي التي يزداد اهتمامها بأوروبا وكيفية إدارة علاقة غير متكافئة مع الولايات المتحدة الأقوى.

حرض البريطانيون الولايات المتحدة من خلال وكالة الاستخبارات المركزية على المشاركة في إسقاط الحكومة الإيرانية من أجل مصالحها النفطية عام ١٩٥٣، لكن بخلاف ذلك، وباستثناء قناة السويس، لم تقم بتدخلات سياسية خارجية مهمة غير نزاعات مصايد الأسماك مع أيسلندا (حروب القد) حتى عام ١٩٧٩ عندما تم التفاوض على استقلال زيمبابوي أخيرًا بعد سنوات من التردد والاهتزاز، وعام ١٩٨٢ عندما اندلعت الحرب مع الأرجنتين على جزر فوكلاند. على الرغم من الترحيب بتلك الحرب في بريطانيا باعتباره انتصارًا عسكريًّا عظيمًا فقد كانت قريبة المدى. لو انفجرت المزيد من صواريخ إكسوست فرنسية الصنع من الجانب الأرجنتيني عندما ضربت أهدافها، لغرق ما يكفي من الأسطول البريطاني وهو ثمنٌ باهظٌ، مما أجبر بريطانيا على الانسحاب. وعلى صعيد آخر، اتسمت ثمانينيات القرن الماضي بممانعة بريطانيا على الانضمام إلى حملة العقوبات ضد الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، والمشاجرات مع ليبيا، وخاصة عندما انفجرت رحلة بان آم فوق إسكتلندا عام ١٩٨٨ وأشارت إليها أصابع الشك. لكن لم يحدث أي تدخل عسكري من الجانب البريطاني خارج أيرلندا الشمالية – ضد تمرد الجيش الجمهوري الأيرلندي – حتى التسعينيات عندما تم استدعاء بريطانيا فجأة كجزء من الجهود متعددة الأطراف للعب أدوار عدائية مسلحة لتشن حرب الخليج الأولى كجزء من التحالف ضد العراق عام ١٩٩١، وجزء من حملة قصف الناتو على كوسوفو وبلجراد في الحرب اليوغوسلافية عام ١٩٩٩.

اشتركت بريطانيا في التدخل العسكري في أفغانستان عام ٢٠٠١ بعد ١١ سبتمبر، لكن مجهودها العسكري المنفرد الوحيد في هذه الفترة كان الدفاع عن فريتاون في سيراليون ضد هجوم المتمردين عام ٢٠٠٠، مما أدى لهزيمة قوات التمرد. كانت كل تدخلاتها الأخرى عمليات مشتركة تحمل جميعها بصمة القيادة الأمريكية خاصة في حرب الخليج الثانية عندما تحالفت بريطانيا بقوة مع الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق عام ٢٠٠٣، حيث شارك ٤٦٠٠٠ جندي بريطاني. جاء واضحًا في

رد الفعل الشعبي ضد مثل هذه المشاركة وخسائرها - خاصةً عندما اتضح أنه من المحتمل بعد كل هذا أن يكون العراق خاليًا من «أسلحة الدمار الشامل» القادرة على الوصول إلى الشواطئ الغربية - إن المشاركة في الحملات اللاحقة على ليبيا والعراق وسوريا ستكون فقط بالطائرات الحربية. وبالفعل امتنعت جميع القوى الغربية المشاركة عن الانخراط في القتال البري.

لكن السرعة التي اختار بها رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الانحياز لجانب الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن فيما يتعلق بقضية العراق تحمل بعض التعليقات، فلم تكن اندفاعية أو يائسة، وإنما في حقيقة الأمر تصرف بلير وفقًا لتشخيص تشرشل بعد الحرب بأن بريطانيا قد واجهت ثلاث دوائر متحدة المركز حددت مستقبلها: التقرب من الولايات المتحدة، والتقرب من أوروبا، والتقرب من الكومنولث. لقد فهم تشرشل أن المملكة المتحدة الضعيفة ليس لديها خيار حقيقي سوى الالتزام بتحالف عبر الأطلسي مع الولايات المتحدة. وكانت الولايات المتحدة في الوقت ذاته تبني أوروبا جديدة بتمويل إعادة التطوير على نطاق واسع. والحقيقة لم يكن هناك ثلاث دوائر فعليًّا، لكنها كانت دوائر متحدة المركز. فطريقة التعامل مع التداخلات ومقدار التداخل المسموح به في أي لحظة كان الأساس، فحين بدا أن بلير يتحرك بتهور كان ذلك استعداده للتحرك فقط مع الولايات المتحدة متجاهلًا على سبيل المثال مخاوف فرنسا كشريك أوروبي أساسي. ومع ذلك، قد يبدو التزام بلير بفكرة أن نجاح أي عملية لعكس القوة في السياسة الدولية من جانب إنجلترا مرهون بتعاونه مع الولايات المتحدة مهينًا أو ربما حسابًا عقلانيًّا للإمكانات التي قد يتيحها ذلك التعاون. أيًّا كان الوضع فقد اعتبرت إنجلترا «علاقتها الخاصة» مع الولايات المتحدة مفتاحًا لمستقبلها في العالم إذ كانت مع دولة أقوى بشكل واضح. ولكن التحالف مع قوة يعني أيضًا الالتزام بمصالحها، أو على الأقل الإعلان عن وجود مصالح مشتركة، وهذا ما فعلته إنجلترا بشأن قضية العراق.

كانت تداعيات عدم الانحياز السريع للولايات المتحدة في شأن غزو العراق كفيلة بأن تجعل أي التزام بريطاني مستقبلي لمثل هذا النوع من عكس القوة الأمريكية غير محتمل. وكان على إنجلترا العمل مع كلٍّ من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بشأن التوسع الروسي في أوكرانيا وضم شبه جزيرة القرم. كما كان عليها أن تتفاوض مع أوروبا حول الشراكة التجارية والاستثمارية العابرة للأطلسي مع الولايات المتحدة. وكان عليها أن تحذر عندما أعلنت الصين عن استثمارات ضخمة في إنجلترا – وأضخم في أوروبا – ولكن من الواضح أنها ترى ترابطًا بينهما، فلم يعد هناك ما يشبه سياسة خارجية مستقلة، حيث تسعى الآن وزارة الخارجية محط الفخر كالرولز رويس وبراعتها الدبلوماسية إلى التخلص من النفوذ بدلًا من السعي وراء السلطة.

تأملات

الأولى

كما سنرى في الفصول التالية، هناك تحدٍّ لفكرة كون الولايات المتحدة القوة الوحيدة المهيمنة والقوة العظمى الوحيدة حتى عندما تتعاون بصبر وتساهل مع المملكة المتحدة وتسمح لها بالاعتقاد أن علاقتهما خاصة. ربما حان الوقت لأن تسعى الولايات المتحدة للحصول على عضوية تعددية حقيقية، حيث لن تصبح بها القائد أو العضو الأقوى تلقائيًّا. مع بداية نهضة روسيا ونمو الصين لتصبح أقوى قوة اقتصادية في العالم، حيث تضم مجموعة من المؤسسات التجارية والمالية في جميع أنحاء العالم سنتناول كليهما في فصول لاحقة – ربما تكون الولايات المتحدة قد تأخرت في سعيها الخاص وراء أنظمة تجارية واستثمارية عابرة للأطلسي أو الهادي. وقد حصلت الصين على المساحة وشعور بالأمن مكنها من النمو بسبب التقارب مع الولايات المتحدة الذي قاده كسنجر من بين أمور أخرى. ولكنها فاجأت الكثيرين بسرعة نموها.

الثانية

لقد عملت المملكة المتحدة بمنتهى الوضوح بقيادة رئيس وزرائها بلير بكد لإثبات وجود علاقة خاصة مع الولايات المتحدة من خلال دعمها الشديد لمبادرات السياسة الخارجية الأمريكية المثيرة للجدل، مثل غزو العراق. وهناك محركان أساسيان لهذا الأمر:

الأول: كان تصميمًا يصل إلى حد الاستماتة - لأن تظهر بأنها قادرة على فرض السلطة كدولة حتى لو كان تحت قيادة دولة أخرى أقوى.

والثاني: هو الخيال البريطاني التاريخي لمصالحها الدولية التي يتطلب الحفاظ عليها عكس قوتها كدولة بقدر المستطاع. واستند هذا الخيال إلى ذكرى لمصالحها كما بدت قبل الانسحاب من شرق السويس واجتياح قناة السويس نفسها عام ١٩٥٦، وعليه فإن المدرسة الإنجليزية للعلاقات الدولية تحظى بقدر كبير من المصداقية حتى إن الرؤية الدولية مشكلة، وربما عازمة تاريخيًّا، مما يؤثر على صياغة السياسة الخارجية والممارسات الدبلوماسية، حتى وإن بدا الوضع المترتب على ذلك غير معقول.

وقد استوعبت الولايات المتحدة هذا الغرور البريطاني، ولكن في حلم الملك البابلي، ضربت الصخرة السماوية أقدام التمثال؛ لأنها كانت مصنوعة من مواد لا ترتبط على أساس سليم. فالسلطة تزيد ثم تتراجع وتنهار.

٣

صعود وسقوط أوروبا: الوحدة والتحدي

كانت فكرة أوروبا عظيمة، ولكنها كانت أيضًا تدريجية. فقد تشاركت مشروع إعادة البناء بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت خطة مارشال الأمريكية ذات أهمية قصوى، ولكن كان هناك الشعور أيضًا أن على أوروبا القيام بشيء تنظيمي لنفسها بشكلٍ موحد. ومن هنا بدأت فكرة الوحدة كهدف شامل في التطور. ولكن الخطوات الأولى كانت محددة للغاية، فبدأت بتشكيل الاتحاد الأوروبي للفحم والصلب عام ١٩٥١، حيث بدا أن الوحدة والتعاون في هذا القطاع ضروريان لإعادة تطوير أوروبا صناعيًّا، ولكن المنظرين بدأوا في قراءة مثل هذه الخطوات من «التعاون الوظيفي» كشروط مسبقة لتعاون أوسع وأنظمة تعاون رسمية.

منذ البداية كان هناك ثلاثية الطرق التنظيمية: بدءًا من المواءمة، ثم التعاون وصولًا إلى نظام التنسيق. وقد وصلت أوروبا الآن للمرحلة الأخيرة، وهذا ما تسبب في حدوث فزع جسيم بين العديد من الدول الأعضاء التي ترى أن البيروقراطية والأطر التنظيمية لبروكسل قد تدخلت في السيادة الوطنية بمعناها الوستفالي القديم، حيث كان لها مسئولون مستقلون يعملون في ظل دساتير وقوانين مستقلة تخدم الدساتير والقوانين السيادية. كان هذا جوهر النقاش في المملكة المتحدة، حيث قامت باستفتاء عام ٢٠١٦ بشأن استمرار العضوية في الاتحاد الأوروبي، فإلى أي مدى تضاءلت السيادة بسبب آلية التنسيق في بروكسل التي لا تعتبر مسئولة أمام جمهور الناخبين في المملكة المتحدة أو غيرها.

ولم تصمم ثلاثية المواءمة والتعاون والتنسيق باعتبارها عملية تقدمية. كانت ببساطة وسيلة لتحليل أنواع المنظمات الحكومية الدولية. ترتبط المواءمة بالمبادئ المشتركة، بما في ذلك مبادئ التخطيط والسلوك الاقتصادي في حالة منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. ويتعلق التعاون بموافقة الدول على إقامة مشروع أو مجموعة من المشروعات المشتركة، لكن تبقى للدول حرية الاختيار حتى إن كان لديها أمانة مشتركة لتلك المشروعات. أما التنسيق، فهو إلى حد كبير من اختصاص هيئة فوق دولية تحافظ على اتباع الدول المشاركة اتفاقيات المعاهدات التي تتمتع بمركز وقوة القانون.

أثر التوتر في نمو الاتحاد الأوروبي – ما بين خطوات التعاون شديد الوظيفية الذي توسع من قطاع الفحم والصلب ليشمل المزيد من المجالات ويركز دائمًا على الوظائف الفنية، والرؤية العظيمة لرجال الدولة مثل جان مونيه المسئول الفعلي عن قطاع الفحم والصلب الذي وصل بسرعة مذهلة لمنصب نائب الأمين العام لعصبة الأمم في سن ٣١ ذي التصور لنظام اقتصادي أوروبي جديد، وأخيرًا اتحاد أوروبي سياسي جديد – على نمو الاتحاد أثناء مروره بمراحل المعاهدات حيث يتم اعتماد أحكام كل معاهدة في القوانين الوطنية.

لقد أسفرت معاهدة روما عام ١٩٥٧ عما أطلق عليه وقتها السوق الأوروبية المشتركة، مما يمكنا من القول بأن الغرض من التأسيس لم يكن سياسيًّا بحتًا وقتها. فبحلول معاهدة ماستريخت عام ١٩٩٣، كان للاتحاد الأوروبي مهمة اقتصادية ونية سياسية واضحة، فسحبت أوروبا عددًا من السلطات السيادية من أعضائها من أجل تحقيق تشابه إداري عام ووظيفي في المعايير والإجراءات لجميع الأعضاء. وقد تفاوضت دولة عضوة مثل المملكة المتحدة على «إلغاء» بعض هذه القواسم المشتركة، ولكن بالنسبة لمعظم الدول في الاتحاد الأوروبي تعد تلك المعايير والإجراءات الأوروبية المشتركة، إما هدف أو حقيقة بالفعل.

هناك جانبان معينان من المشروع الأوروبي جديران بالذكر، أولهما: القلق الواضح لبعض الأعضاء مثل اليونان فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية والمالية، والآخر القلق الشديد من مجاورة روسيا، وهي سياسة أمنية أوروبية مشتركة ليس لديها خيار سوى تفعيلها من خلال حلف الناتو.

البنك

لا تُلزِم عضوية الاتحاد الأوروبي الدولة بالانضمام إلى البنك الأوروبي أو منطقة اليورو. ومع ذلك، انضمت ١٩ دولة من أصل ٢٨ دولة إلى منطقة اليورو التي أقيمت عام ١٩٩٩ بعد إنشاء البنك الأوروبي عام ١٩٩٨ لإدارة اليورو والعمل كمزود للسيولة في ظل شروط وأنظمة مالية متفق عليها. تكمن المشكلة في وجود عملة مشتركة دون سياسة مالية مشتركة، لكن الحصول على السيولة خلق منطقة مالية تحت الإدارة الأوروبية إما يمليها البنك نفسه أو القادة الأوروبيون الذين يعملون من خلال البنك وغالبًا بالتنسيق مع وكالات الإقراض الأخرى مثل صندوق النقد الدولي (IMF).

حتى الدول التي لم تكن جزءًا من منطقة اليورو - ولكن تم تحديد ديونها وعلاقاتها التجارية باليورو - وجدت ظروفها وتوقعاتها الاقتصادية الوطنية متأثرة للغاية، إن لم تكن محددة بقيمة اليورو وقرارات السياسة العامة للبنك. كما أن حجم احتياطي اليورو وقدرته جعل العملة والبنك أمرًا يستحيل تجنبه، حيث يعتبر اليورو ثاني أكبر عملة احتياطية في العالم، ويعتبر متداولًا دوليًّا أكثر من الدولار الأمريكي.

ولذلك تأثرت جميع الدول الأوروبية تقريبًا بطريقة أو بأخرى إثر الأزمة المالية اليونانية التي بلغت ذروتها عام ٢٠١٥. وبلغ إجمالي الأموال المخصصة من البنك الأوروبي وصندوق النقد الدولي لإنقاذ اليونان ١١٠ مليار يورو، وهو مبلغ ضخم ليبقى معلقًا حتى بإجمالي سيولة واحتياطي الدول الأوروبية التي لا يزال أغلبها يتعافى من الأزمة المصرفية لعام ٢٠٠٨.

وجد اليونانيون أنفسهم دون أي سيادة مالية، حيث كان من شروط خطة الإنقاذ تقشفًا لا يمكن لأي حكومة مستقلة مسئولة أمام الناخبين والرأي العام – أن تفرضه بنفسها. كان الوضع اليوناني فريدًا، فقليل من الدول الأوروبية قد تسيء إدارة اقتصادها إلى هذا الحد، وتتطلب مساعدتها الكثير من المليارات. ورغم ذلك كان الوضع معبرًا عن واقع أوروبي أساسي. وبرغم المقاومة والطعن في الاتحاد السياسي، ينظر إلى اقتصاد أوروبا ككتلة واحدة ولكنها ليست متحدة تمامًا بعد، حيث لا تزال الأجزاء المستقلة مثل الاقتصاد الإنجليزي والألماني تتمتع بسلطة نافذة، ولكن لا تزال الدول الأوروبية تتمتع بالمزيد من النفوذ والقيادة الاقتصادية الدولية متحدة.

الأمان

تعاني أوروبا من تهديدات أمنية خارجية قريبة وبعيدة وتهديدات داخلية. فقد نشبت حرب بين دولتين من الأعضاء الحاليين ودولة راغبة في الانضمام بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٨ فيما عرف بالحروب اليوغوسلافية، حيث حاربت سلوفينيا وكرواتيا ضد صربيا. كما يجري «إدارة» قضية كوسوفو التي حصلت على استقلالها بعد صراع مرير مع صربيا عام ٢٠٠٨ والتي لا تزال قائمة بلا حل تمامًا كقضية مستقبل البوسنة المقسمة بشكل مرير بإدارتها المحاصرة من قبل صربيا، والتي كانت موقع الحصار الرهيب لسراييفو الذي يعتبر في أسوأ حالاته شبيهًا بالاعتداء على المدن في العصور الوسطى بالخنق والذبح.

هناك سياسة خارجية وأمنية مشتركة للاتحاد الأوروبي ولديه مجلس للشئون الخارجية، وممثل سام على درجة وزارية يعمل متحدثًا باسم السياسة الخارجية الأوروبية المشتركة. كما يوجد سياسة أمنية ودفاعية مشتركة كجزء من الجهاز العام منذ ١٩٩٩. ولكنها تتمتع بقدرات عسكرية محدودة للغاية، حيث لا تتعدى الآليات الأمنية للاتحاد الأوروبي بصورة أساسية أشكال حفظ السلام. أما فيما يتعلق بالسلطة العسكرية الفعلية، يعتمد الاتحاد الأوروبي على ارتباطه الوثيق بحلف الناتو. وقد وصفت العلاقة بين المنظمتين بأنها «قابلة للانفصال ولكنها غير منفصلة»[١١]، وأن التصديق على معاهدة لشبونة عام ٢٠٠٧ قد أدى فعليًّا إلى دمج جهاز الأمن الأوروبي مع حلف الناتو. وقد شاركت قوات الناتو في نهايات الحروب اليوغوسلافية ضد كوسوفو. ويتعين حاليًّا على الطامحين في عضوية الاتحاد الأوروبي - وجميعهم الآن من المنطقة المعزولة في أوروبا الشرقية القديمة ودول حلف وارسو - بموجب برنامج الشراكة الشرقية في حال توقيع اتفاقية شراكة مع الاتحاد الأوروبي الاختيار بشكل واضح بين الحفاظ على علاقة وطيدة مع روسيا أو الانضمام للاتحاد الأوروبي. ولا يجوز لأي دولة الموازنة بين الأمرين. ولا يعني هذا فقط الانضمام للاتحاد الأوروبي، وإنما أيضًا يعني تعاونًا إن لم يكن ارتباطًا بالناتو. ومن الناحية الروسية يعتبر هذا تهديدًا كتعبئة لكتلة معارضة.

كما تمتلك أوروبا سياسة مناهضة للإرهاب، فلديها قائمة بالتنظيمات الإرهابية المعلنة ولكنها ليست دقيقة. على سبيل المثال حزب العمال الكردستاني أحد التنظيمات المدرجة بالقائمة، وهو في الواقع حليف عسكري لحلف الناتو في الحرب ضد داعش. ويعتبر وجوده على القائمة إلى حد كبير ترضية لتركيا التي ترى تهديدًا

(١١) تشكلت من قمة الاتحاد الأوروبي في ديسمبر ١٩٩٩ في هلسنكي، انظر:
Nora Bensahel, "Separable but Not Separate Forces: NATO's Development of the Combined Joint Task Force", *European Security* 8, no. 2 (1999): 52-72.

إرهابيًّا في مساعي حزب العمال الكردستاني لاستقلال كردستان، أو حتى الحصول على الحكم الذاتي. فلطالما سعت تركيا لتوطيد علاقتها مع الاتحاد الأوروبي، إن لم يكن للعضوية بالنهاية.

لا يعني وجود تلك القائمة الاستفادة منها بالضرورة، حيث يفترض وجود مثل تلك القائمة بسذاجة أن الإرهاب يمضي عبر تنظيمات رسمية، في حين أن الجماعات التي تعمل عبر خلايا سرية منفصلة أمر مختلف تمامًا. فبالتأكيد لم يجنب تتبع تلك الخلايا أو حتى العلم بها هزيمة وكالات الأمن الضعيفة في بلجيكا قبل الهجمات على بروكسل عام ٢٠١٦، كما سبق أن فشلت في تحذير فرنسا أن الخلايا نفسها ستهاجم باريس عام ٢٠١٥. فلم تكن القاعدة على القائمة لبعض الوقت. ولا شك أن «داعش» و«الجماعات الإرهابية» الأخرى تسخر من المساعي الأوروبية البيروقراطية لمكافحة الإرهاب.

وتكمن أهمية الوحدة الأوروبية في مجال المساعدة الإنسانية، حيث يخصص مكتب المساعدات الإنسانية للمفوضية الأوروبية حوالي مليار يورو من المساعدات السنوية الطارئة إلى جانب المساهمات الفردية للدول الأعضاء، مما يمكن أقصى احتياطي للطوارئ الإنسانية المشتركة.

روسيا

سارعت روسيا - بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر - بدعم الولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب، وكان ذلك تضامنًا حقيقيًّا ضد الإرهاب، ومحاولة لكسب الود من أجل توطيد علاقة خاصة مع القوة الرائدة داخل حلف الناتو. ولكن الولايات المتحدة تعمدت التنصل تمامًا من اللفتة الروسية، فقامت في ٢٠٠١ بالانسحاب من

معاهدة الصواريخ المضادة للباليستية لعام ١٩٧٢، واختارت المضي في توسع الناتو حتى حدود روسيا في ٢٠٠٢. ثم هدأت العلاقات بين الولايات المتحدة/ حلف الناتو وروسيا منذ عام ٢٠٠٣ عندما رفضت روسيا دعم غزو العراق.

وقد أوضح الرئيس بوتين موقفه في خطاب تاريخي ألقاه بميونيخ في فبراير ٢٠٠٧[١٢]، حيث انتقد رغبة الولايات المتحدة في احتكار الهيمنة على الشئون العالمية و«استخدام القوة المفرط في العلاقات الدولية الذي يكاد يكون غير محكوم» والذي أسفر عن عكس مقصده، حيث «لا يشعر أحد بالأمان!» لا يشعر أحد أنه يمكن ضمان الحماية بموجب القانون الدولي. وعليه، فقد يتمكن الموقف الأمريكي فقط من تحفيز سباق مسلح جديد. ودعا بوتين إلى إقامة «نظام عالمي عادل وديمقراطي يضمن الأمن والازدهار ليس لقلة مختارة فحسب، بل للجميع». باختصار، كان الخطاب احتجاجًا على عدم تضمنه في النظام العالمي الذي تتوخاه الولايات المتحدة، ولكنه كان أيضًا ضد توسعية حلف الناتو التي شكلت تهديدًا على الأمن الروسي. كان التحذير البارز بشأن سباق مسلح جديد بمثابة إعلان عن نشاط جديد لروسيا في السياسات العالمية.

وقد عزز هذا التصرف ما قام به حلف الناتو في كوسوفو، وفي مشاركة الاتحاد الأوروبي في استقلال كوسوفو عام ٢٠٠٨، وهو استعداء شديد لصربيا التي طالما اعتبرت روسيا حليفًا لها. لكن لغة بوتين عند التحدث عن كوسوفو كانت مصاغة بعناية لتكون دفاعًا عن نظام الدولة الوستفالية، أي ضد الانفصال عن الدول المعترف بها، وفي هذه الحالة كان حديثه ضد الانفصال عن صربيا. فقد كان ذلك، كما وصفه بوتين

(١٢) https://www.youtube.com/atch?v=ZIY5aZfOgPA

بالأمر غير الأخلاقي وغير الشرعي، بل و«سابقة مروعة» تبدأ في تدمير نظام العلاقات الدولية الذي تطور عبر القرون[١٣]. بدا الأمر كما لو أن بوتين كان يتكهن بانتهاجه الأسلوب الغربي بضمه لشبه جزيرة القرم بعدها بعدة سنوات.

يقول ريتشارد ساكوا؛ مراقب روسيا البارز: إن نهج الاتحاد الأوروبي تجاه أوكرانيا كجزء من نسخته لـ«أوروبا الأوسع» يستبعد فعليًّا روسيا من جميع هياكل التعاون الإقليمي لأوروبا الغربية[١٤]. أراد بوتين وجود «أوروبا الكبرى»، حيث يتمتع الجميع بحقوق وفرص متساوية بما في ذلك روسيا، ورأت روسيا أن الحرب الباردة كانت في الواقع انتصارًا مشتركًا من أجل مستقبل سلمي. لكن الغرب بإصراره على أنه المنتصر في الحرب الباردة تعاملَ مع روسيا كعدو مهزوم، وسعى لتهميشها من خطط منطقة النفوذ الأكبر للاتحاد الأوروبي/ الناتو.

قادت ثورات الزهور والألوان - ثورة الزهور في جورجيا (٢٠٠٣) والثورة البرتقالية في أوكرانيا (٢٠٠٤) وثورة التوليب في قرغيزستان (٢٠٠٥) - روسيا إلى اتباع الحذر الشديد إن لم يكن أصابها جنون الاضطهاد فيما يتعلق بكيفية استغلال تلك التغييرات السياسية من قِبَل الغرب. وقد زاد من تلك المخاوف المؤشرات الأولية إلى أن جورجيا وأوكرانيا ستسعيان للانضمام لحلف الناتو (انفصلت أوكرانيا عام ٢٠١٠). ولكن كشفت الحرب على جورجيا والضم الفعلي لمقاطعتين منها إلى روسيا عام ٢٠٠٨، والضم الرسمي لشبه جزيرة القرم عام ٢٠١٤، وجزء من أوكرانيا، كشف كل ذلك عن نية روسيا لإعادة ما اعتبرته الحدود المتعدية لكل من الاتحاد الأوروبي والناتو.

(١٣) *The Sydney Morning Herald* (23 February 2008).

(١٤) Richard Sakwa, *Frontline Ukraine: Crisis in the Borderlands* (London: I. B. Tauris, 2014).

تأمل موسع

بعد سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفييتي دخلت الولايات المتحدة مرحلة عامة من الانتصارات، وراق لها أن تكون قوة عظمى وحيدة وتتمتع بهيمنة منفردة. ولكن في الحقيقة لم يتغير أي شيء في سياستها الخارجية أو إجراءات الدفاع، وإنما تم معايرتها على وجود عدو قوي. وقد ظهر أعداءٌ من النوع الأكثر غموضًا وأدت «الحرب على الإرهاب» الناتجة عن ذلك إلى الحاجة الملحة لغزو دولتي أفغانستان والعراق وهما من الدول التي يمكن مهاجمتها حيث تم تحديد «محور الشر» من خلال تسمية عدد من الدول، فيما بدا وكأن مصالح الولايات المتحدة وانعكاس قوتها لا يمكن حسابه وتنفيذه إلا ضد الدول الأخرى. ولكن لم يهزم هذا الإرهاب على الإطلاق. وبينما كانت الولايات المتحدة تصارع للعثور على تصور للإرهاب وتنظيماته، كان جهازها السياسي سعيدًا بأن روسيا قد بدأت تنهض مما يمكنها من استعادة مكانة العدو القوي.

باختصار أنعشت عودة روسيا مجموعة من ردود الأفعال المخزونة التي قام بإنتاجها وتعديلها عدد من الإدارات الحكومية وإجراءاتها وعملياتها التنظيمية. وبالفعل كان الأمر أسهل مما كان عليه عندما كان الاتحاد السوفييتي قوة عظمى حقيقية. فقد كانت روسيا في الألفية الجديدة نسخة أضعف مما كانت عليه في السابق، ومع ذلك، فقد كان بها ما يكفي من الخصائص المشتركة مع «النموذج القديم» مما يمكن آليات السياسة الخارجية الأمريكية من إعادة استخدام نهجها القديم.

كما سمحت بالحفاظ على مستويات الإنفاق العسكري والاستثمارات التكنولوجية، بل وتطويرها. وعلى عكس التنظيمات الإرهابية لا تزال روسيا تمتلك طائرات وسفنًا حربية حديثة، وصواريخ نووية يجب مواجهتها والتغلب عليها. وبهذه الطريقة، تتمكن الولايات المتحدة من الإبقاء على الأهمية الاقتصادية لقاعدة دعم صناعية كاملة وتوسعتها وزيادتها، أُطلِقَ عليها «المجمع الصناعي العسكري».

كما كانت الصناعات الدفاعية ووزارة الدفاع القوية تعني أيضًا الحفاظ على «موازين القوى» الداخلية بين الدوائر الحكومية في واشنطن العاصمة، لا سيما بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية. ويعتبر الوضع الراهن للتوجهات السياسية لواشنطن تجاه العالم الخارجي كما كان من قبل.

وقد كانت صياغة السياسة الخارجية ثنائية بالضرورة حيث تبدأ بـ«نحن» و«هناك» التي تتوجه السياسة نحوها. كما تسمح باستخدام منهجيات مثل نظرية الألعاب (نظرية الإستراتيجية المثلى) لمعايرة المصالح والسلطة والقيم والاستجابات العقلانية المتضاربة، حيث تتمكن نظرية الألعاب والسياسة الخارجية العلمية التنبؤية من العمل فقط في حالة وجود عدو مشابه، ففي حقيقة الأمر كانت صرخة الترحيب مدوية في الولايات المتحدة: «مرحبًا بعودتك روسيا! لطالما افتقدناك».

أما لأوروبا، فمن المتوقع أن تكون الصورة مختلفة. فقد ارتكز اتحاد الدول الذي سعى إلى نوع من القواسم السياسية المشتركة وإن لم يستطع تحقيقه - على تعددية حقيقية. كان هناك قاعدة وظيفية ضخمة للمشروع الأوروبي الذي تخطى في الألفية الجديدة الفحم والصلب. وربما كان الشعور التأسيسي للتعاون الوظيفي يملي الحاجة لإقامة نظام تعاوني مع روسيا في مجال الغاز الطبيعي، حيث اعتمدت ألمانيا وأوكرانيا على الغاز الطبيعي الروسي كل شتاء. ومن ذلك التعاون الوظيفي - كما أمل المنظرون الأوائل في أوروبا - يمكن للتعاون السياسي أن ينمو. وربما كانت روسيا بنظرتها للحرب الباردة على أنها انتصار مشترك وليست سببًا لتباهي طرف واحد بالانتصار - لترحب بتلك الخطوات نحو التعاون السياسي، حتى وإن لم يكن حميمًا. لكن ما حدث كان مؤشرًا على حدود التعددية، حيث إن التاريخ الأيديولوجي والسياسي يتمكن في نهاية الأمر من عرقلة الانتفاعية وقدرة التعددية. كما يعني استمرار وجود الناتو الذي أصبح الآن قادرًا على استعادة عدوه السابق واستخدام كل

ردوده المخزنة في مواجهته – على الرغم من إشارات ذلك العدو المتعددة بأنه يفضل عدم الاستمرار في هذا الدور – اعتماد أوروبا عليه كذراع أمني وعدم قدرتها على الاستجابة لمساعي روسيا نحو بداية جديدة.

إذا تمكن الرئيس بوتين من تنمية الاقتصاد الروسي فعندئذٍ سيكون للاتحاد الأوروبي منافس اقتصادي، وربما في ظل نظام التعاون لم تكن لتدخل في أي حال أي شكل حتى من التكامل المبدئي مع شيء إشكالي، لكنه يتوقع أن يكون ضخمًا للغاية مستقبلًا. فيسمح الاتحاد بالهيمنة الاقتصادية على اقتصاد رمزي صغير مثل اليونان، ولكنه لا يسمح بوجود كتلتين تنافسيتين بداخلها. وعلى الرغم من ذلك، فقد تكون أوروبا قد أضاعت فرصة لتحقيق نوعٍ أكبر من التعاون، وربما تحقيق شكلٍ من أشكال السلام الأكبر على حدودها.

٤

عندما يستيقظ التنين

قال نابليون إن العالم يجب أن يحذر التنين النائم، حتى لا يستيقظ، فلم تكن الصين نائمة فحسب في أيامه، بل كانت تائهة في زمن ما قبل الحداثة، ولم تكن قادرة على الخروج من الحلم البائد لعالم مضى كانت فيه الدولة الأكثر تقدمًا على وجه الأرض، وبالطبع الأكثر فضيلة وحكمة. ولكنها بطريقةٍ ما، أغرقتها قوة وانتهاكات دولٍ بربرية بحكام بدائيين وشعوب وحشية. وكان سحب الصين المتروبصة نحو العولمة بمثابة صدمة هائلة لما أصبحت إمبراطورية معزولة ومغرورة.

عرَّضَت القوى الإمبريالية في القرن التاسع عشر – بمساعدة اليابان سريعة التحديث – الصينَ لإذلال هائل استمر حتى القرن العشرين، خاصة من جانب اليابان التي احتلت الكثير من الأراضي الصينية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية. ولم يساعد الصينيون أنفسهم؛ إذ كانوا منقسمين إلى معسكرين مسلحين متنافسين يطمحان إلى شكلين مختلفين للغاية من الجمهورية، ما بين إدارة تحركها اليابان، وأخرى بقيادة عدد من جنرالات الحرب. سقطت الجيوش الصينية – رغم محاولاتها المستميتة لكن المتأخرة نحو التحديث – أمام اليابانيين بسبب سوء القيادة العامة، وكان فصيل الحزب القومي الصيني (الكومينتانغ) بقيادة شيانج كاي شيك حليفًا رسميًّا للولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفييتي خلال الحرب، وقد حارب مع البريطانيين من أجل بورما، ولكنه واجه الجيش الياباني والشيوعي للرئيس ماو في الوطن. وقد كان الصراع في الصين مستمرًّا بنهاية الحرب العالمية

الثانية، حيث انتصر الشيوعيون عام ١٩٤٩، ودفعوا قوات تشيانغ القومية إلى المنفى في جزيرة تايوان. لكن الصين كانت مدمرة مما كلف النظام الشيوعي ثمنًا باهظًا من استقرار البلاد لتنفيذ سياساته الاجتماعية والاقتصادية الجديدة.

وعلى أي حال، كانت الولايات المتحدة كحليف للحزب القومي المهزوم عازمة على تجميد الصين خارج الدبلوماسية والاحترام الدولي، فلم تكن الدبلوماسية أولوية، وذلك باستثناء الاتحاد السوفييتي الشيوعي.

منعت الولايات المتحدة الصين باستخدام حق النقض في مجلس الأمن للأمم المتحدة الجديدة من تبوؤ مقعدها الخاص في مجلس الأمن ومنح مكانه في الأمم المتحدة للنظام الوطني. بحلول عام ١٩٥٦، بدأت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي الشيوعي تبرد، حيث بدأ نيكيتا خروتشوف عملية التبرؤ من التجاوزات الاستبدادية التي كان يمارسها ستالين. وكان ذلك بالنسبة للصينيين بمثابة بداية تعديلية بعيدة المدى مما برر للدبلوماسية الجديدة العثور على حلفاء في نطاق العالم الأوسع. أصبح خروتشوف أول سكرتير للحزب الشيوعي السوفييتي بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣، ولم تكن هناك مؤشرات عامة على أنه قد ينحرف بشكل كبير عن إرثه. كان الخطاب الذي ألقاه في ٢٥ فبراير ١٩٥٦ والذي اتهم فيه ستالين على مدى أربع ساعات بأنه أدى لعبادة شخصه مفاجأة للعالم الشيوعي بأكمله بما في ذلك الصين، لكنه صار واضحًا للصينيين حتى قبل ذلك أنه لم يكن من الحكمة الاعتماد فقط على الاتحاد السوفييتي للدعم. لذلك ذهب تشو إنلاي في إبريل ١٩٥٥إلى مؤتمر باندونج الأفرو-آسيوي؛ وهو تجمع ضخم لقادة من العالم الناشئ وأهم رواد عدم الانحياز، حيث ألقى خطابًا بارزًا.

كان الغزو الدبلوماسي الذي قام به تشو رئيس الوزراء الصيني بحثًا عن الحلفاء الدبلوماسيين وحشد التقدير الدولي لما عانت منه الصين، وفي الوقت نفسه، كانت محاولة صينية حقيقية للاعتراف بأن الآخرين قد مروا أيضًا بقرن أو أكثر من

الإمبريالية البشعة. لقد كان الصينيون معزولين عن العالم الخارجي لدرجة أنه لم يكن لديهم في الواقع أي أساس تجريبي للتضامن. ولا يمكن أن يحدث على أساس أيديولوجي، حيث إن أغلب العالم الأفرو-آسيوي لم يكن شيوعيًّا على الرغم من ميل الكثير من الدول تجاه شكل أو آخر من الاشتراكية؛ لذا قام تشو بطرح خطابه على أسس أخلاقية بالإضافة إلى حث التعاطف: إذا نهبك آخرون سوف نساعدك، وإذا قام آخرون بفرض سيادتهم على سيادتكم وتدخلوا في أعمال كان ينبغي أن تكون لحكوماتكم؛ لن نتدخل أبدًا في شئونك الداخلية. ولطالما كان الجمع بين المساعدة وعدم التدخل من الأمور التي حاول الصينيون أن يرقوا إليها – حتى وإن كان ذلك مثيرًا للمشاكل – منذ ذلك الحين.

بدأت الصين في أعقاب باندونغ بتقديم مساعداتها المالية إلى الدول الناشئة – على الرغم من أن الدولة الشيوعية الصينية لم يتجاوز عمرها سبع سنوات، وتحكم دولة شديدة الفقر والتخلف. ولم تفشل المخططات سريعة المدى التي أطلقها الرئيس ماو لتسريع عملية التحديث والتصنيع فحسب، بل كان لها تكلفة باهظة من حيث الإزاحة الاجتماعية، فقد كان شاعرًا حالمًا يحاول أن يكون مخططًا صناعيًّا بمعرفة محدودة جدًّا بالصناعة أو التصنيع. وقد التقط الخيط مَن حوله مثل تشو ولاحقًا دنغ شياو بينغ، وحاولوا جلب نظام براجماتي وعلمي للتنمية الصينية. ولو قلنا أن تشو قد قاد الطريق نحو العلاقات الدولية بخطابه في باندونغ، فقد كان له أيضًا تأثير كبير في وقت مبكر من عام ١٩٦٣ على ريادة مفاهيم «التحديثات الأربعة» والتي حولها دنغ شياو بينغ إلى سياسة رسمية حينما خلف ماو كزعيم الصين عام ١٩٧٨. كانت هذه «التحديثات» ضرورية لتطور القاعدة الصناعية، وبالتالي الاقتصادية اللازمة لعلاقات الصين الدولية في مساعدة الآخرين بالإضافة إلى التنافس مع العالم الغربي المتقدم.

كما كان تشو رائدًا فيما عُرف بعد ذلك بنظرية العوالم الثلاثة الصينية المبينة أدناه. بالرغم من استخدام تلك النظرية كنظرة الصين الرسمية للعالم في خطاب دنغ شياو بينغ بالأمم المتحدة عام ١٩٧٤، وضع تشو مقوماته في الستينيات. كانت شاعرية لدرجة ألهبت حماس ماو لها، وقد أشيع أنها من صياغة ماو بالتنسيق مع الرئيس الزامبي كينيث كاوندا الذي كان يعتبر وقتها ملك إفريقيا وفيلسوفها أثناء زيارته لبكين عام ١٩٧٤. وقد استكملت الموضوعات التي حددها تشو في باندونج، ولكن قبل ١٩٧٤ وقع الحدث الدبلوماسي الذي منح الصين الحرية الدولية لتطوير رؤيتها في باندونج وهو التقارب مع الولايات المتحدة.

تنس الطاولة واستخدام أطراف ثالثة

كان التقارب هدفًا لهنري كسنجر الذي أراد ثلاثة أمور؛ أولًا: حرية مواجهة الاتحاد السوفييتي كمنافس وحيد للقوة العظمى دون تشتيت الانتباه الذي يُشكله الصين كخصم آخر. ثانيًا: الحدود المسئولة للسلوك الإقليمي الصيني في حالة خروج الولايات المتحدة بنجاح من حرب فيتنام، وثالثًا: ضم الصين للحفل العالمي للقوى العظمى لزيادة المصداقية والواقعية حتى لا يعزف أي نغمات متضاربة خارج المسرح - ولجعل السلوك الصيني يحترم حدود كونه جزءًا من الحفل، مما يسهل التنبؤ به.

بالنسبة للصينيين، كان أمرًا مرغوبًا، حيث يعني أن الصين لم تعد مضطرة لمواجهة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، ويشكل خطوة نحو منطقة أكثر سلمًا إذا حسمت الولايات المتحدة بالفعل مصالحها في فيتنام. ويعني الاعتراف بها أخيرًا كقوة عظمى - حتى وإن كانت جزءًا من مجموعة أكبر- وينهي رسميًّا مرحلة الإذلال، كما يمكنه من اتخاذ خطوات لتحقيق الرخاء الاقتصادي في نظام تجاري لم يستبعد الغرب، ولاسيما الولايات المتحدة.

ومع ذلك، لم يكن لكسنجر علاقات دبلوماسية مباشرة مع الصين على الإطلاق. كما كانت معرفة الولايات المتحدة بالصين محدودة، نظرًا لتطهير وزارة الخارجية من اللغويين وعلماء الصينيات أثناء عصر حملات مكارثي المناهضة للشيوعية. ولم يكن الوضع الصيني أفضل كثيرًا. وبدون عمليات مؤسسية وتخطيط مسبق مثلت الأدوار الرئيسية التي لعبها كسنجر وتشو إلى حد ما أنقى أنواع سلوك «الفاعل العقلاني» الذي عرف في الدبلوماسية الدولية فترة ما بعد الحرب. على الرغم من ذلك، بالمعنى الصحيح لكلمة «عقلاني»، جدير بالذكر أن الرجلين وثقا بشكل مثير للقلق في حدسهما. كان نجاحهما وقدرتهما على تطوير توافق شخصي هائل سابقة تاريخية فريدة من نوعها. استخدم كسنجر الدكتاتوريين كبداية، أما الصيني فقد ذكر تنس الطاولة كرمز يدل على أن التاريخ الجديد ممكن. وبذكر الأمر نجده سخيفًا.

قدم كسنجر مقترحات سرية عام ١٩٧٠ إلى يحيى خان الباكستاني ونيكولاي تشاوشيسكو الروماني، كان الأول المسئول عن التمرد في شرق باكستان ذلك العام الذي أدى إلى انفصالها الدموي لتصبح بنجلاديش، والآخر ديكتاتور شيوعي لم ترثه الولايات المتحدة بالتأكيد عندما أعدم سريعًا عام ١٩٨٩. وطلب منهما استخدام مساعيهما الحميدة لإظهار استعداد بكين للتفاوض. وألمحت بكين عن استعدادها، ثم استخدمت ذرائعها الخاصة لدعوة الرياضيين الأمريكيين للعب مباراة تنس الطاولة في الصين في إبريل ١٩٧١. لم يكن مثل هذا التواصل ممكنًا أبدًا في ظل العزلة الدبلوماسية للصين بعد الحرب العالمية الثانية وحقبة العداء السياسي التي تلتها. ومن هنا ظهرت «دبلوماسية كرة الطاولة»، مما أضفى على المستوى الدولي روحًا عامة بإمكانية تجديد العلاقات المجمدة بين الولايات المتحدة والصين. ومع ذلك، قام كسنجر بزيارتين سريتين إلى بكين في يوليو وأكتوبر ١٩٧١ للعمل مع تشو إنلاي في إطار التحضير لزيارة عامة من قبل الرئيس نيكسون إلى الصين في العام التالي. كانت تلك الزيارة مليئة بالعظمة والخيلاء، ولكنها في الحقيقة لم تكن سوى

واجهة للتقارب، حيث لم تتعلق تفاصيلها بأي من نيكسون أو ماو. وبالرغم من أنها على الصعيد الصيني تتعلق كليًّا تقريبًا بتشو، فلم تكن هناك ثقة كاملة في الولايات المتحدة. فبعد سنوات عديدة من العداء، لن يكون هناك تحول بين عشية وضحاها في توقعات السياسة الخارجية. وهكذا، استمر الصينيون في العمل نحو نظرية العوالم الثلاثة.

النظرية وحدودها

لم تستمر النظرية الفعلية طويلًا كمفهوم نشط للعالم، فقد كانت نوعًا من العاطفية مثل أي شيء آخر شعور بأن للصين دورًا قياديًّا، خاصة بين أولئك الذين كانوا يخرجون أيضًا من مرحلة الإذلال. فقد اقترحت النظرية عالمًا أولًا من التوسع والطموح الإمبراطوري، وتمثل ذلك في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حيث لا تزال القوتان العُظْمَيَان تسعيان إلى الهيمنة العالمية. أما العالم الثاني فيتألف من منطقة وسيطة تتكون في بلدان من أوروبا وأمريكا اللاتينية على الرغم من أن النظرية لم تنص على ذلك بشكل مباشر؛ لأن الصينيين لم يكن لديهم في الواقع نهج واضح نحو هذا الجزء من العالم. هذا العالم يمكن أن يكون حليفًا للعالم الأول أو الثالث، والنجاح في هذا التحالف من شأنه أن يحدد معالم الصراع على السلطة بين العالم الأول والثالث، مما يجعل للنظرية أهدافًا دبلوماسية. وقد كان العالم الثالث في الأساس هو العالم الناشئ - عالم عدم الانحياز - ولكن بتغيير بسيط، حيث كانت تقوده وتحميه وتدافع عنه الصين.

وسرعان ما ثبت كذب التصور بقدرة الصين على القيام بتلك المهام ورغبة دول العالم الثالث الأخرى في قيامها بها، وعدم قيام الصين بأي عمل ضد مصالح تلك الدول. ففي ١٩٧٩، غزا الاتحاد السوفييتي أفغانستان بدون سابق إنذار - كما وصفه الخبراء الإستراتيجيون العسكريون الغربيون، أي بدون علامات تحذير أو حتى بوادر استعداد واضحة. لم يتمكن الغرب ولا الصين من منعه، وبذلك قام نصف العالم

الأول بالاستيلاء على جزء من العالم الثالث – وكانت الصين بعيدة كل البعد عن كونها بطلة فعالة وحامية، فلا يسعها إلا أن تراقب عن بعد مع الغرب بنفس المفاجأة وعدم التحضير.

ومع ذلك، وقع حدث مهم آخر عام ١٩٧٩ وهو غزو الصين السريع لفيتنام بعد أن كانت حليفًا لفيتنام الشمالية في الحرب ضد الولايات المتحدة والنظام المدعوم من الولايات المتحدة في الجنوب، فوجد الصينيون أنفسهم متورطين في صراع مع الدولة الموحدة التي ساعدت على خلقها. وكان الغزو خاطفًا، حيث أربك الفيتناميون القوات الصينية وهزموهم من البداية، فبعد أن أصقلتهم سنوات من الصراع مع الولايات المتحدة كان الصينيون ببساطة في نفس مستواهم، وهنا تكمن المشكلة، فقد كانت الصين تتصرف كعملاق من العالم الأول. ولم تدافع عن هذا الجزء من العالم الثالث على الإطلاق. وبعد ١٩٧٩، لم تذكر هذه النظرية مرة أخرى أبدًا، ولكن لا يعني هذا تخلي الصينيين عن مبدأ التضامن مع العالم الناشئ، حيث أدركت الصين ببساطة أنه لا يمكنها أن تكون القائد بشكل تلقائي، وأن لديها الكثير لتتعلمه حول تعقيدات وطموحات هذا العالم التي قد لا تتوافق مع الطموحات الصينية. بل وربما تتضارب معها مثلما حدث في فيتنام.

التعرف على إفريقيا

كان تشو إنلاي – على الرغم من خطابه المثير في باندونج ثم تعاملاته البارعة مع كسنجر – أبعد ما يكون عن دبلوماسي محنك، فقد سببت له زيارته إلى إفريقيا عام ١٩٦٣ حرجًا بالغًا، حيث رفض الأفارقة حديثه عن الثورة التي كانت آخر شيء سعت إليه الدول حديثة الاستقلال التي تسعى في المقام الأول إلى الاستقرار.

ارتكبت الصين أخطاءً في حق إفريقيا، تمامًا كما ارتكبت إفريقيا الكثير من الأخطاء في حق نفسها كقارة انقسمت أخيرًا إلى ٥٥ دولة - ولكن بها ما يصل إلى ٢٠٠٠ انقسام فرعي تاريخي وثقافي ولغوي، وكان عليها أن تتعلم إقامة الدولة في أسرع وقت ممكن، خصوصًا أن القوى الاستعمارية بعد أن أنهكتها الحرب العالمية الثانية خرجت منها مسرعة تمامًا كما دخلتها بدافع الجشع دون إعداد الأجهزة الحكومية والإدارية العامة للدول المستقلة حديثًا.

شهدت نيجيريا حربًا أهلية دامية في نهاية الستينيات، فانفصلت الكونغو تقريبًا منذ البداية في أوائل الستينيات. كما اندلعت حروب الاستقلال الدامية بمشاركة حركات التحرر المتنافسة في تلك الدول التي رفضت القوى الاستعمارية الخروج منها مثل أنجولا التي رفضت البرتغال الخروج منها. وقد دعمت الصين الحركة الخاطئة في أنجولا وفاز الفصيل الذي دعمه السوفييت (والجيش الكوبي). في زيمبابوي، اختار الصينيون الحصان الرابح ودعموا كفاح موجابي المسلح ضد الحكم الأبيض. لم يعنِ ذلك مجرد صداقات طويلة الأمد كالتي طالما حافظت عليها زيمبابوي مع الصين منذ استقلالها عام ١٩٨٠ - ولكن أيضًا حركة دبلوماسية سريعة لإصلاح العلاقات مع من فازوا بدون مساعدة الصين أو من فازوا على الرغم من العرقلة الصينية كما هو الحال في أنجولا.

وعلى الرغم من أن الصين كما ذكرنا قد بدأت بتقديم المساعدة التنموية لإفريقيا عقب باندونج، فقد بدأت مرحلة جديدة من هذه المساعدة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالشراكات التجارية المستقبلية ومصادرة الموارد فقط عند انتهاء حقبة التحرير في التسعينيات عندما حصلت جنوب إفريقيا أخيرًا على حكم الأغلبية تحت حكم نيلسون مانديلا وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي. استغرقت الصين عشر سنوات من إعلان دينغ شياوبنغ الرسمي عن «التحديثات الأربعة» عام ١٩٧٨ لتفعيل قدراتها الصناعية حتى يتسنى لها صنع السلع الأساسية للتجارة، وتتطلب موارد معدنية

وبترولية من الحجم الذي تستطيع إفريقيا توفيره. كانت إزالة التوترات السياسية مع الولايات المتحدة إلى جانب الحريات الدبلوماسية التي سمح بها ذلك مسهمة أيضًا للحس الصيني بالعولمة الذي بدأ ينذر العالم الغربي منذ ذلك الحين.

كما أرضى الحصول على مقعد في مجلس الأمن الدولي ضمن التضامن أخيرًا تحقيق الغرور الصيني بأنها «المملكة المركزية» رغم كل سنوات التهميش.

مقدمة للعالم الجديد

بالرغم من فشل نظرية العوالم الثلاثة، لم يتوقف تطلع الصين نحو دور القيادة. وكما سنتناول في فصل لاحق، يجب أن يتم ذلك عن طريق الدبلوماسية الاقتصادية وليس السياسية. ومع ذلك، فإن إعلان النظرية واعتراف الولايات المتحدة الدبلوماسي بالصين الذي أدى إلى استعادتها لمقعد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ونجاح «التحديثات الأربعة» أرسى عهدًا من الرخاء الصيني وشكلًا غريبًا من أشكال العولمة الصينية، حيث بدأ في التمدد في جميع الجوانب.

كان لإفريقيا دور محوري في كل هذا، لكن وجب التأكيد على أن التحذير الغربي من شراء الصين لنفوذ اقتصادي كبير في القارة كان نتيجة لتحليل مهين للغاية. أولًا: تم شراء التأثير بكل ما تحمله كلمة الشراء من معنى، فلم تستعمر الصين إفريقيا بالقوة كما فعلت أوروبا، ولم تؤيد الصين الفصل العنصري من أجل مصادرة المعادن كما فعلت الولايات المتحدة. وفوق كل شيء، لم تكن إفريقيا «قارة سوداء ساذجة» لا تستطيع أن تتخذ خيارات لنفسها ولمصلحتها الخاصة. كان على الصين في كثير من الأحيان أن تتفاوض بحنكة على مواضع دخولها إلى إفريقيا من خلال نموذج اقتصادي جديد يمكن أن يطلق عليه بشكل ودي «نموذج شنغهاي» في مقابل «نموذج واشنطن»

القائم على الضرورات السياسية والشرطية الاقتصادية للغرب. كان «نموذج شنغهاي» قليل الشرطية، حيث كان يحمل كميات كبيرة من السيولة والمشروعات التنموية والتمويلات في مقابل مصادرة الصين للموارد المعدنية والبترولية.

إن كان الأفارقة في كثير من الأحيان يقودون الصفقات الصعبة على الرغم من المخاوف الغربية من البراءة والسذاجة الإفريقية، فالجدير بالذكر أن الصينيين أنفسهم غالبًا ما يهيئون إفريقيا بطريقة الراعي المتعالي، وانطبق ذلك بشكل خاص على الشركات الصينية الخاصة التي يمكن أن تكون ساذجة وعنيفة بشكل مروع في وجهات نظرها حول كيفية العمل في سياق إفريقي. على سبيل المثال، أدت الإدارة الصينية للمناجم الزامبية إلى أكثر من حالة وفاة بين العمال المحليين نتيجة عدم وجود شروط مناسبة تتعلق بالصحة والسلامة، وامتد هذا النهج إلى نظام القيم الذي يدعم النموذج الصيني الرسمي.

وبالرغم من ذلك، فإن خبرة ومكاسب العمل في إفريقيا ساعدت الصينيين في خططهم المستقبلية. وسوف نتناول ذلك في فصل لاحق، أما في الوقت الراهن، قدمت إفريقيا بداية جديدة للصين.

المثالية الكونفوشية لنموذج شنغهاي

لطالما استعرض الغرب قيم الديمقراطية والتعددية والشفافية – إلى جانب سخائه – كما كانت في بعض الأحيان شرطًا للحصول على ذلك السخاء. أما السخاء الصيني فلطالما صُوِّر على أنه مبني على الرشوة وخالٍ من القيم. ولكن في الواقع ما يطبق هنا على الأرجح هو الأخلاقيات الكونفوشية لجوانجشي والتي ترجمت بشكل غير دقيق على أنها تبادل، ولكنها تبادل في سلسلة من التدرجات العمودية. في حين أن القيم الغربية في أنقى صورها أفقية على عكس القيم الكونفوشية والديمقراطية. يتجه الاحترام

والإجلال إلى الأعلى، وكأنه من أحد رعايا الدولة إلى الإمبراطور، ولكن ينبغي أن يتدفق الدعم والرعاية لأسفل، وإلا يفقد الإمبراطور ولاية السماء. ليس على الذات العليا التأكد من تدفق القيم إلى الأسفل فحسب، وإنما أيضًا المبادرة بها، كما يجب أن يكون التدفق لأسفل شديد السخاء في حالة أن المتلقي ضعيف (أو نامٍ). مما يعني شيئين؛ أولًا: رأى الصينيون المتلقي الإفريقي (ربما في اللاوعي) ككيان أضعف وأقل تقدمًا. وثانيًا: قد يعتبر تحميل الصين الاتفاقات بالكثير من «المحسنات» جزءًا من المسئولية الصينية في ترتيب هرمي حتى عندما تكون كل الخطابات حول الشراكات متساوية. فكما يتضح من نظرية العوالم الثلاثة، كانت الروح الأساسية هي القيادة الصينية وسموها الضمنية.

كان هذا المعنى للقيادة بالفعل تعبيرًا عن الواقعية الصينية كنهج للعلاقات الدولية. فقد اعتبرت البلاد أنها كانت عاجزة، وهي صدمة نفسية كبيرة بعد آلاف السنين من القوة، لكنها الآن ترى أنها على أعتاب أن تصبح قوية مرة أخرى، ولكن بسبب الشعور الحقيقي الذي صار لديها من حقبة الإذلال تلك وإن كان كونفوشيًّا - بالتضامن مع الآخرين الذين كانوا يخرجون من نفس الحالة. فقد كانت مثالية متعاطفة ممزوجة بالواقعية مختلطة مع نفس العزلة الثقافية التي جعلت الصين في خطر قبل قرن من الزمان، ولكنها واثقة من الفوز هذه المرة بوجود موارد العالم تحت قيادتها.

وقفة تأمل

تقترح القضية الصينية أهمية التذوق الثقافي لفهم السياسة الخارجية. لذا يجب أن نضيف التأكيد على التكوينات الثقافية إلى تأكيد المدرسة الإنجليزية على التاريخ، ومدرسة كوبنهاجن على التكوينات الاستطرادية، وفي حالة الصين، هناك الكونفوشية. ولكن من المؤكد أنها ستكون أيضًا تاريخية بالكامل وفقًا للمدرسة الإنجليزية بالنظر

إلى الذاكرة الحميمة، وتذكر قرن الإذلال من قبل القوى الإمبريالية. فلم يكن سلوك الولايات المتحدة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تجاه الصين سوى صدى مستمر لذلك.

كان الإنجاز الذي حدث مع الولايات المتحدة على يد كسنجر وتشو بديهيًّا بقدر ما يمكن أن يكون الفاعل الحدسي «عقلانيًّا»، كما تم بدون الأجهزة الحكومية لصياغة السياسة الخارجية وجميع عملياتها التنظيمية، وبالطبع بدون ردود أفعالها المخزنة. فالأمر ببساطة: لم يكن هناك مخزون في تلك الحالة.

هناك مثال آخر على ذلك في إفريقيا - كما سنرى في الفصل التالي - حيث دخل الرئيس الزامبي كينيث كاوندا في محادثات مع فردريك وليام دي كليرك رئيس نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا عام ١٩٨٩ دون أي إعداد «عقلاني» أو موجزات سياسية أو موجزات عن دي كليرك على الإطلاق. كان ذلك لكاوندا الذي لم يستشر وزارة الشئون الخارجية أو موظفي الرئاسة «عقلانية» تشكلت بالكامل من حدسه وإيمانه بالقوة الأخلاقية للمساواة والرغبة في السلام.

بدأت الصين تتجه نحو التحالف الطويل - في حالة إفريقيا - وتأمل في الحصول على مردود طويل الأمد وتتلقاه، حيث تبدأ نتائج اتفاقات الموارد طويلة الأجل في الظهور. جاء الكثير من ذلك نتيجة التعاطف الصيني مع الإذلال الذي وقع على إفريقيا على أيدي القوى الإمبريالية، وأشار تشو إنلاي مبكرًا عام ١٩٥٦ إلى نقطة شبه شهوانية عن عدم التدخل الصيني في شئون الآخرين. كان هذا ملاحظة للمبدأ الأساسي للوستفالية وكذلك وعد لإفريقيا بأن الصين لن تكون مثل القوى العظمى التي جاءت إلى القارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولكن كما سنوضح، فقد شهد تحويل منظمة الوحدة الإفريقية إلى الاتحاد الإفريقي عام ٢٠٠٠ الاعتماد على مبدأ عدم جواز اللامبالاة الذي تم ملاحظته بشكل متقطع وانتقائي وربما استخدم ما يناسب منه فقط - في مواجهة الاضطرابات والمذابح التي تستمر في أجزاء معينة من إفريقيا حتى يومنا هذا. لكن الصينيين المتشبثين بموقفهم من منتصف القرن العشرين ليس لديهم ما يقولونه حول الموقف الإفريقي الرسمي في القرن الواحد والعشرين. ومرة أخرى قد يحرم العيش في الماضي الصين من فرصة تأتي من التطلع إلى الأمام.

وأخيرًا، يجب ملاحظة أن صياغة السياسة الخارجية الصينية تخضع للشد والجذب - باستخدام مصطلحات جراهام أليسون - من قبل المنظمات المختلفة في المؤسسة الصينية الرسمية التي تسعى جميعها للشراء فيما يتعلق بالشئون الخارجية. هناك أيضًا أذرع الحكومة المنظمة مثل وزارة الشئون الخارجية نفسها، ومجلس الدولة التابع لمجلس الوزراء. إذًا، يمكننا القول إن الأجهزة المعنية بالبحث، خاصة بالوزارة لا تزال ضعيفة: هناك أجهزة السياسة الخارجية التابعة لجيش التحرير الشعبي، وأهم من ذلك هناك لجان السياسة الخارجية للحزب الشيوعي الصيني، كما سنرى، نجد الدور الرئيسي للمؤسسات المالية الصينية يزداد، ولكن من بينها جميعًا، تعتبر أجهزة الحزب هي الأهم، ولا يعرف أحد كيف تعمل. وفي غياب شخصية مثل تشو إنلاي الذي كان «غامضًا» على نحو صحيح ومقصود من أجل بقائه السياسي والحفاظ على «أوراقه لنفسه»، لا توجد شخصية يمكن أن يقال عنها قادرة على إضافة أخلاقيات شخصية قوية إلى المجال العالمي. وهكذا كان الأمر سهلًا على كسنجر إلى هذا الحد على عكس خلفائه اليوم الذين يواجهون الصعوبات البالغة في سعيهم لتفسير وفهم أي شيء.

٥

الدبلوماسية الإفريقية وتنمية الوعي الذاتي

خضعت جميع الدول الإفريقية للاستعمار بشكلٍ أو بآخر باستثناء أثيوبيا، التي حاول الإيطاليون استعمارها. وقد أدى إدراج إفريقيا في عولمة القرن الثامن عشر إلى ظهور تجارة الرقيق الأوروبية والأمريكية، وتواصُل المبشرين المسيحيين، وعمل مشروعات التجارة ومصادرة الموارد، وخلق مجالات التأثير من جانب القوى الأوروبية الفردية. وقد حدث ذلك بشكلٍ مختلف في شمال إفريقيا، حيث كانت هناك هياكل دول «معترف بها» من آثار العصور القديمة، وإفريقيا جنوب الصحراء الكبرى التي كان ينظر إليها بشكلٍ عام على أنها غير متحضرة، إن لم تكن وحشية شعوبًا وتنظيمًا، بالرغم من وجود «دول ملكية» واضحة المعالم في الكثير من الأجزاء الغربية والشرقية والجنوبية بإفريقيا أرسلت بعضها سفراء إلى أوروبا لمناشدة الحكام والفاتيكان من أجل وقف الغزو والمذابح، حتى أن مملكة الأشانتي (غانا حاليًّا) تداولت بشكلٍ مستقلّ في أسواق العقود الآجلة والسلع في لندن قبل أن يستولي الاستعمار البريطاني على تلك القوة لتتغلب المخاوف التجارية البريطانية على قدرة الأشانتي لتصدير نبيذ النخيل إلى الأسواق العالمية.

في مؤتمر برلين – الذي عُقد بين عيد الميلاد المجيد لعام ١٨٨٤ ورأس السنة الجديدة ١٨٨٥ – وافقت القوى الأوروبية على تقسيم إفريقيا رسميًّا إلى مناطق مستعمرة وفقًا لمجالات التأثير الموجودة بالفعل، أو بواسطة رسم خطوط مستقيمة على الخريطة. صورت الرسوم السياسية في ذلك الوقت المتفاوضين يحتفلون ويشربون المشروبات الروحية بينما يقسمون ديكًا روميًّا وقارة لعيد الميلاد. والجدير بالذكر

أنه في تلك المرحلة لم تُعتبر إفريقيا ثمينة لدرجة أنها تستحق خوض حرب لأجلها، واعتبرت سرعة التقسيم وفعاليته مثالًا للدبلوماسية متعددة الأطراف في أفضل صورها. لم تعن النتيجة – أي إفريقيا الحالية التي تنقسم إلى ٥٥ دولة مستقلة تتبع الحدود المتفق عليها في برلين بدقة – مجرد تحقيق نظام الدولة في سنوات الفقر التي تلت الحرب العالمية الثانية، وفي خضم اضطرام الحرب الباردة، يسعون لإقامة دولة غير مكتملة مقسمة أو أمم جزئية داخل أراضي الدولة. فيجب إنشاء «أمم» جديدة لتناسب الدول الجديدة بطريقة أو بأخرى لا تنكر تاريخ ٢٠٠٠ جماعة عرقية ولغوية ماضية. كان تحقيق كل تلك الأمور وبقائها حتى يومنا هذا انتصارًا دبلوماسيًّا، وقد حققت بعض الدول – مثل زامبيا – نجاحات هائلة في تأسيس الدولة على الرغم من وجود ٧٢ عرقًا ولغةً من فترة ما قبل الاستعمار.

رياح التغيير

بحلول عام ١٩٥٧، كانت غانا قد استقلت بالفعل بقيادة كوامي نكروما الذي شهد نهضة هارلم وأعمال ماركوس جارفي حين كان طالبًا بالولايات المتحدة – حتى إنه وضع نجمة جارفي السوداء شعارًا على العلم الوطني الغاني. الأهم من ذلك أنه استوعب فكرة الوحدة الإفريقية وأيضًا وحدة الشعوب السوداء. فقد كان هناك قرن من مؤتمرات الوحدة الإفريقية التي تُقام في إنجلترا أو الولايات المتحدة، ويُعتبر مؤتمر مانشستر لعام ١٩٤٥ الأهم، حيث أدرك القادة الوطنيون أن العد التنازلي للاستقلال كان أحد نتائج الحرب العالمية الثانية، إذ يسعى العالم لبداية جديدة وللتخلص من التراث القديم. وقد تضمنت تلك المؤتمرات شخصيات مثل المفكر الأمريكي الأسود دو بويز، وفي ١٩٤٥ ضمت العديد من قادة إفريقيا المستقبليين. كانت شكلًا من أشكال المسار الثاني أو الدبلوماسية غير الرسمية التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بما أصبح المسار الأول

أو العمليات الرسمية والحكومات. حصلت نيجيريا وعدد من المستعمرات الفرنسية السابقة على استقلالها عام ١٩٦٠، وبدت موجات ورياح التغيير غير قابلة للتوقف باستثناء الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

كانت إفريقيا قد حققت من الوحدة ضد العنصرية في بقية الأراضي التي كانت في أيدي الأقليات البيضاء التي تضطهد الأغلبية السوداء بقدرٍ ما. ومن المؤكد أن ضراوة هذا التمييز كانت كافية لتحفيز الوحدة الكاملة. ولكن الوحدة الأوسع رغم ميول نكروما ستستغرق سنوات أطول. لم يذهب نكروما أو أي زعيم أسود آخر إلى جنوب إفريقيا عام ١٩٦٠ لحثها على إعادة النظر في الفصل العنصري، وإنما رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان، حيث كان خطابه أمام برلمان جنوب إفريقيا تباهيًا أنيقًا بالنفوذ البريطاني. فبرغم تميز الخطاب بلهجته الخفيفة وصياغته الحذرة الدقيقة، كان يخرج عن هذا الأسلوب في اللحظة المناسبة ليكون قويًّا ومباشرًا. وقال ماكميلان أن «رياح التغيير» تجتاح القارة[١٥]. وحذر من جرفها، ولكن خطابه لم يكن له أي تأثير.

روديسيا

بينما قامت جنوب إفريقيا بمذبحة شاربفيل، وسجن نيلسون مانديلا متجاهلة ماكميلان، استعد جيرانها لتغييرات ضخمة. فنالت روديسيا الشمالية استقلالها وأصبحت تُعرف بزامبيا عام ١٩٦٤. وقد كان من المفترض أن تليها روديسيا الجنوبية، ولكن عام ١٩٦٥ أعلنت حكومة الأقلية البيضاء تحت حكم يان سميث أنه لن

(١٥) Jimmy Thatcher, "Harold Macmillan: The Wind of Change", *YouTube*, www.youtube.com/watch?v=5fjiHI1apUI

يكون هناك حكم للأغلبية السوداء «ولا بعد آلاف السنين»[١٦]، فأعلن نظام الأقلية استقلال أحادي الجانب كان من شأنه خلق أزمة دبلوماسية دولية على الفور، حيث أصبحت حكومة غير معترف بها إلى حدٍّ كبير، وتسببت في مشاكل سياسية كبيرة بالمنطقة. وكونها متاخمة لجنوب إفريقيا ذات الفصل العنصري جعل منها منطقة فاصلة بين الحدود للنظام هناك، ومن المستحيل أن تفعّل جنوب إفريقيا العقوبات الدولية ضد روديسيا. فبريطانيا الفقيرة التي يقودها الآن رئيس الوزراء هارولد ويلسون والتي تضطر إلى الذهاب إلى صندوق النقد الدولي من أجل بقائها الاقتصادي لن ترسل جيشها، لذلك اندلع تمرد مسلح في روديسيا بقيادة حركتي تحرير. وعلى الفور، أصبح لدى الدول السوداء في المنطقة مشكلة دعم أي الجماعتين. وقد واجهت زامبيا مشكلة أخرى حيث إن جميع طرق النقل لصادراتها وارداتها تتجه جنوبًا عبر الأراضي البيضاء مما قد يقضي على اقتصادها في لحظة. ولكنها كانت تؤيد التحرير بشدة، بينما كان الرئيس كاوندا من المسيحيين السلميين. وهنا أصبحت الدبلوماسية أساسية لبقاء زامبيا، لكنها كانت دبلوماسية خطرة.

استضاف كاوندا أحد فصيلي التحرير الروديسيين (وجيشه) على أرض زامبيا، جنبًا إلى جنب مع كتلتين متقاتلتين ضد جنوب إفريقيا: المؤتمر الوطني الإفريقي المنفي (ANC)، ومنظمة شعب جنوب غرب إفريقيا (سوابو) التي تقاتل من أجل استقلال ناميبيا المحتلة. لكنه أمر جنوده بعدم إطلاق النار إذا هاجمهم غزو وحدات القوات الخاصة من روديسيا أو جنوب إفريقيا، كما أمر قواته الجوية بعدم التعرض للطائرات الحربية الروديسية التي تُحلق فوق الأراضي الزامبية، مما أثار استياء عدد كبير داخل جيشه، وبالتالي هدد باحتمال حدوث مشاكل داخلية. لكنه نجح في تحقيق

(١٦) Iconic, "Ian Smith Saying He Does Not Believe in Black Rule and His Opposition to It", *YouTube*, www.youtube.com/watch?v=FBV3PyvK8Kw

التوازن، حيث استضاف أعداء الأنظمة البيضاء وفي الوقت ذاته لم يهددها بنفسه مباشرة. عمل كاوندا بكدٍّ داخل الكومنولث كمنظمة دبلوماسية متعددة الأطراف كانت وقتها تحت قيادة الخبير القانوني الغياني شريداث رامبال.

رفضت الهند عند استقلالها عام ١٩٤٧ الانضمام إلى ما يحمل اسم «الكومنولث البريطاني». وهكذا وُلد «كومنولث الأمم» دون أي دور قيادي لبريطانيا. وبالفعل، أصبح الكومنولث وسيلة رئيسية لانتقاد تقاعس بريطانيا فيما يتعلق بقضية روديسيا. ولكن أسفرت تلك الجهود عن تقدم بطيء للغاية، حتى جاء هنري كسنجر ومن بعده الجهود الدبلوماسية الأنجلو-أمريكية بقيادة ديفيد أوين وأندرو يونغ في منتصف السبعينيات ممن سعوا لحل لمشكلة روديسيا. كان هناك محادثات في جنيف. وقد استضاف كاوندا نفسه مفاوضات على الحدود بين زامبيا وروديسيا (على جسر نايف إيدج الذي يمتد على جانبي شلالات فيكتوريا في عربة سكك حديدية متوقفة على الخط الفاصل بين الحدود، ولكن لم يعبر أي الطرفين الخط إلى الجانب الآخر). لم تسفر تلك المفاوضات عن شيء، واستلزم الأمر عنصرين لتغيير الجمود الدبلوماسي. وقد استدرج الجيش غير النظامي الخاص بروبرت موجابي العامل خارج موزمبيق الجيش الروديسي في حرب استنزاف، ثم تم انتخاب مارجريت تاتشر لرئاسة وزراء بريطانيا وأعلنت أنها تريد التخلص من ألباتروس الروديسي، حتى لو يعني ذلك الاعتراف بحكومة يان سميث والتي تضم الآن شكليًّا بعض السود، ولكنها إلى حد كبير لم تمثل حكم الأغلبية الذي يتم اختيارها بحرية، مما أثار غضب دبلوماسي شديد في الحال.

ومن المُسلم به أن مؤتمر القمة الذي عُقد في لوساكا عام ١٩٧٩ يُمثِّل نقطة تحول للكومنولث، حيث جاء الزعماء لخوض معركة مع مارجريت تاتشر بشأن روديسيا وهددوا بانهيار الكومنولث. ولكنها كانت أيضًا لحظة تاريخية للدبلوماسية الإفريقية. أولًا: كان هناك دور مضيف القمة كينيث كاوندا، وثانيًا: كان هناك تحضيرات

دبلوماسيين زامبيا لهذه المناسبة متعمدين منافسة وفشل الأعمال التحضيرية البريطانية، وثالثًا: كانت مناسبة بذل فيها جهد دبلوماسي إفريقي في بيئة متعددة الأطراف تمامًا لا تكتفي بكونها إفريقية، وإنما تحتاج كسب حلفاء من مناطق بعيدة وأطراف مهتمة وما إلى ذلك. تعتبر جميع تلك المكونات مطلوبة في مثل هذه المناسبات عندما تكون النتائج غير متوقعة.

كان للأمين العام للكومنولث شريداث رامبال أيضًا دور بارع، حيث دبر العديد من التكتيكات في تلك القمة. وكان مارك تشونا الدبلوماسي الزامبي الرئيسي الذي أجرى «دبلوماسية مكوكية» للوحدة الإفريقية قبل القمة ليحظى بدعم العديد من الخيارات. وباختصار أقل ما يمكن أن يقال على تلك المناسبة إنها كانت انتصارًا للدبلوماسية في إطار إفريقي وكانت انتصارًا لدور زامبيا في الدبلوماسية لمعالجة مشكلة إفريقية. وعليه، عُقدت مفاوضات السلام في لانكاستر هاوس بلندن.

كانت المفاوضات صعبة في نهاية عام ١٩٧٩، لكن لعب الرؤساء الأفارقة، مثل كاوندا وسامورا ماشيل الموزمبيقي وجوليوس نيريري التنزاني أدوارًا محورية وراء الكواليس، ليس فقط في الضغط الدبلوماسي على البريطانيين، ولكن أيضًا في الضغط على أطراف التحرير. ثم أثناء الهدنة العسكرية والحملة الانتخابية التي تلت ذلك، أرسلت الدول الإفريقية مراقبين للانتخابات في أول مراقبة انتخابية مُنسقة في العالم والتي نظمتها أمانة الكومنولث، كما لعبت القوات الكينية دورًا في عمليات حفظ السلام التي رافقت الهدنة. وجاء انتخاب روبرت موجابي غير متوقع للبريطانيين ومرضيًا للرأي العام الإفريقي الذي رأى أن جيشه غير النظامي قد تحمل وطأة الكفاح العسكري. وكان ذلك انتصارًا بقوة السلاح والتفاوض، وشعرت إفريقيا أنها قد بلغت سن الرشد في الحرب ضد حكم الأقلية البيضاء. وبذلك لم يبق سوى معقل الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

المفاوضات مع حكومة الفصل العنصري: وقفة تأمل للسذاجة المتعمدة

عقد المسار الثاني مناقشات غير رسمية في لوساكا عام ١٩٨٤، حيث أُرسِل اثنان (يمكن إنكارهما) من مبعوثي جنوب إفريقيا لتشكيل رأي بشأن إمكانية إجراء مفاوضات موضوعية مع المؤتمر الوطني الإفريقي. وصل المبعوثان فان دير ميروي؛ الأستاذ بجامعة كيب تاون، وبيت مولر؛ المحرر بصحيفة محافظة، دون أي إعدادٍ حقيقي. كانا ساذجين بطريقة ملموسة ساذجين حول ما يقولان وكيف يقولانه، ونتيجة لذلك تبعت سلسلة من اجتماعات المسار الثاني في أجزاء أخرى من إفريقيا في السنوات التالية مثل إشراك قادة الأعمال في داكار. لكن جنوب إفريقيا شاركت في العملية بمسارين متوازيين، حيث أطلقت هجومها العسكري الضار بـ«إستراتيجية قومية كلية» بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٤ في محاولة لإرهاب جميع حكومات المنطقة لدرجة كافية لجعلها لا تهدد جنوب إفريقيا بنفسها أو تدعم حركات التحرر التي تهددها. كان الهدف الرئيسي هو الحكومة الماركسية في أنجولا التي استضافت جيشًا كوبيًّا تمكّن من صد هجمة سابقة لجنوب إفريقيا في المعارك النهائية للاستقلال عن البرتغال في ١٩٧٥- ١٩٧٦. دمرت السياسة الكلية لجنوب إفريقيا المقتبسة من محاولات فرنسا لقمع الثورة الجزائرية أجزاء كثيرة من المنطقة. حاربت زيمبابوي - التي دمر مخربون من جنوب إفريقيا عام ١٩٨٢ سلاحها الجوي - قوات حرب العصابات التابعة لجنوب إفريقيا في موزمبيق، ولكن لم تتمكن القوات الكوبية حتى عام ١٩٨٨ - بمساعدة القوات الجوية السوفييتية وبفضل صفوف المعركة الجماعية والاشتباكات حول مدينة كويتو كوانافالي الأنجولية - من إجبار جنوب إفريقيا أخيرًا على الجلوس حول طاولة المفاوضات المناسبة. باءت الجهود التي بذلها الأمين العام للكومنولث النيجيري إيميكا أنياوكو ومجموعة من الشخصيات البارزة في الكومنولث برئاسة الرئيس النيجيري السابق أولوسيغون أوباسانجو عام ١٩٨٦ بالفشل، بالرغم من وجود

خطر فرض العقوبات. قاد الدبلوماسي الأمريكي تشيستر كروكر محادثات ما بعد ١٩٨٨ المتعلقة بالانسحاب العسكري لجنوب إفريقيا من مناطق غير جنوب إفريقية مثل ناميبيا، ولكنها لم تتعلق بالسلام النابع من حكم الأغلبية في المنطقة.

ومع ذلك، كان الاضطراب في صفوف حكومة الفصل العنصري هائلًا، حيث أُجبر الرئيس بوثا على الاستقالة. وبدلًا منه تم تعيين فريديريك ويليم دي كليرك الذي لم يكن معروفًا إلى حدٍّ كبير، وقد أرسل رسائل خاصة إلى الرئيس كاوندا عام ١٩٨٩ وطلب منه إجراء محادثات سلام. وفي نفس العام، كانت المحادثات مستمرة مع ثابو إيمبيكي في جنوب إنجلترا. وبالرغم من سرية المحادثات مع كاوندا، تمكنت وسائل الإعلام الزامبية والدولية من استغلالها. كان دي كليرك يحتاج إلى كاوندا للاستفادة من حزب المؤتمر الوطني الإفريقي التابع لإيمبيكي، وأيضًا لضمان الحصول على أي اتفاق سلام من دول «صفوف الدفاع الأمامية» بالمنطقة التي قد واجهت جنوب إفريقيا ودمرتها عسكريًّا من قبلها.

يُقال أن دي كليرك قد دخل هذه المباحثات في ليفينجستون على شلالات فيكتوريا بخمس مجلدات إحاطة شاملة عن الرئيس كاوندا. على عكس كاوندا الذي ذهب بدون أي إحاطة على الإطلاق، حيث لم يتوقع وزارة خارجيته أو موظفو الرئاسة تولي دي كليرك الحكم، ولم تكن لديهم أي معلومات عنه وكذلك لم يسأل كاوندا عن أي معلومات؛ لذا - كما أشرنا في نهاية الفصل السابق وثق كاوندا تمامًا في حدسه وموقفه الأخلاقي باسم السلام والمساواة، متجاهلًا نصيحة أقرانه مثل جوليوس نيريري رئيس تنزانيا الذين لم يثقوا في جنوب إفريقيا، وكان بإمكانهم ذكر قائمة طويلة من المواقف التي تدل على سوء النية من جانب نظام الفصل العنصري، وبالتالي كان لديهم أسباب عقلانية لعدم التفاوض. بالنسبة لكاوندا، تصدر العقلانية خلال المحادثات نفسها، وقد يعني هذا بشكل أساسي أن نقطة البداية لم تكن مجرد

صراحة، وإنما سذاجة متعمدة. تم الإفراج عن مانديلا في وقتٍ مبكرٍ من العام التالي، كما تم فك الحظر عن حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا. ويمكن مناقشة إلى أي مدى يعود الفضل في ذلك لكاوندا أو لإيمبيكي، وما إذا كان أي من ذلك ليحدث دون الانتصار الكوبي في كويتو كوانافالي. ربما كانت الأسباب الثلاثة معًا. ولكن الجدير بالذكر أن إيمبيكي بعد أن قضى معظم حياته خارج جنوب إفريقيا لم يكن لديه وجهة نظر شاملة ليتفاوض عليها من أجل جنوب إفريقيا. كان هو وكاوندا يتفاوضان للحصول على مكان لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا الذي التحق بركب الديمقراطية. وكان لإيمبيكي تأثير على العصيان والتمرد. وقد ساهم إطلاق سراح مانديلا واستكمال مشروع مكافحة الاستعمار ومناهضة حكم الأقليات في نضج الدبلوماسية الإفريقية.

الاتحاد الإفريقي والدبلوماسية النيجيرية

سمح الدور الذي يلعبه الكومنولث في الشئون الدولية كمنظمة ذات عضوية ضخمة وأنماط التدخل الدبلوماسي غير الرسمية التي لا تزال تمارسها لرامبال وأنياوكو كأمينين عامين بالقيام بدور مصغر لأمين عام الأمم المتحدة داج همرشولد. ولم يتمكن أحد ممن خلف همرشولد من محاكاة جرأته ومخاطرته الدبلوماسية، لكن يمكن القول بأن رامبال (بشأن استقلال زيمبابوي) وأنياوكو (في الضغط على جنوب إفريقيا) قد اقترب من ذلك، حيث واجها رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر. كما يمكن القول أن كوفي عنان ذا الأصول الغانية سعى أن يكون نسخة هادئة وخفية من همرشولد، وتغلبَ على إرث من سلفوه مباشرة في الأمانة العامة للأمم المتحدة الذين كانوا يكرهون الجرأة. مما يعني تقدم القيادات الدبلوماسية المشتقة من إفريقيا إلى ميادين أوسع من جنوب إفريقيا.

وكان الكثير من ذلك يتعلق بحفظ السلام ودبلوماسيته الحليفة. فمنذ عام ١٩٦٠ دارت ١٨ حربًا أهلية مكتملة الأركان و١١ إبادة جماعية. كما شهدت ثمانينيات القرن الماضي ما يفوق الـ٣ مليون قتيل جراء العنف. وفي بداية التسعينيات، كان ٤٣٪ من سكان العالم من اللاجئين داخل الحدود الإفريقية.

لم يكن عنان ناجحًا أو حتى ضروريًّا كنائب للأمين العام في المراحل المبكرة من الإبادة الجماعية في رواندا، لكن هذا الحدث كان على الأرجح عاملًا أساسيًّا في إقناع الاتحاد الإفريقي – الذي تولد عن منظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٩٩ – بتبني سياسة عدم اللامبالاة بالصراعات الإقليمية. فلم تكن منظمة الوحدة الإفريقية قبله ناجحة في حفظ أو صنع السلام. وكانت الجهود التي بذلتها في تشاد (١٩٧٧-١٩٨٢) أكبر إنجازاتها في مجال العمل المنسق، ولكنها عانت من أوجه القصور اللوجستي ومشاكل التعبئة. قامت منظمة الوحدة الإفريقية بمهمتها بعد حصولها على إذن من الحكومة في تشاد، حيث كان وقتها مبدأ عدم التدخل المستمد من المبادئ الأساسية لحركة عدم الانحياز التي استمدت بدورها من الخطاب الذي ألقاه تشو إنلاي في باندونج عام ١٩٥٥، يمنع أي محاولة أحادية الأطراف لحفظ السلام أو حتى أي دبلوماسية قوية مدعومة بإعداد عسكري. كانت الحاجة إلى دعوة بدلًا من التمكن من التدخل لحل نزاع مروع سواء باسم حقوق الإنسان والأسباب الإنسانية أو على أساس عدم الاستقرار الذي يهدد الدول المجاورة يُشكِّل علامة استفهام كبيرة حول قدرة وحدود دبلوماسية منظمة الوحدة الإفريقية. وحتى في تشاد على الرغم من أن وساطة منظمة الوحدة الإفريقية بدأت عام ١٩٧٧، واستمر الأمر حتى عام ١٩٨١ حتى يصل جنود قوات حفظ السلام الذين لم يتمكنوا أبدًا من الانتشار بطريقة ثابتة ومدعومة. وحتى في تلك القضية، اتبعت منظمة الوحدة الإفريقية مبادرة نيجيرية، وقبلت الموقف الرسمي لحكومة تشاد على أنها في حالة حرب مع ليبيا – من خلال وكلاء ليبيين – ولم

تكن في الواقع تمر بحرب أهلية. وتبعت قوات حفظ السلام التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٨١ خطة انتشار سابقة لجنود نيجيريين عام ١٩٧٩. وقد أظهر ذلك أن لنيجيريا مصالح دبلوماسية في غرب ووسط إفريقيا.

وقد تجلى ذلك بصورة رئيسية في جهود أخرى لحفظ/ صنع السلام مثلما حدث من عام ١٩٩٠ إلى عام ١٩٩٧ في سيراليون وليبريا من قبل التجمع الإفريقي الإقليمي مستخدمًا القوات المسلحة تحت لواء فريق الرصد التابع للمجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا بقيادة قوات نيجيرية أغلب الأحيان تعمل نيابةً عن المجموعة لتصل في النهاية إلى شكلٍ مؤقتٍ من السلام في كلٍّ من ليبيريا وسيراليون، ولكنها لم تنهِ العنف والحرب في المنطقة وخاصة في ليبيريا.

كل ما فعلته هو ترسيخ الدبلوماسية النيجيرية لحفظ/ صنع السلام باعتبارها قادرة على القيام بمبادرات عسكرية. ومع ذلك، اعتمد الرئيس النيجيري أولوسيجون أوباسانجو على الوسائل الدبلوماسية غير العسكرية حول قضية دارفور عندما كان رئيس الاتحاد الإفريقي في الفترة من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٦، حيث روعت المذابح في تلك المقاطعة السودانية العالم بأسره. استضاف أوباسانجو عدة قمم لأطراف ذات صلة في العاصمة أبوجا مدفوعًا بسببٍ محليّ، حيث بدأت تشاد المجاورة باستضافة ما يقرب من ربع مليون لاجئ من نزاع دارفور. ولكن بحلول هذا الوقت، تغلب مبدأ عدم جواز اللامبالاة الجديد الخاص بالاتحاد الإفريقي على مبدأ عدم التدخل القديم الخاص بمنظمة الوحدة الإفريقية. ومع ذلك، فعلى الرغم من أن الاتحاد الإفريقي أقر في ٢٠٠٤ بأن «الوضع الإنساني خطير في دارفور»، لن يتمكن من التدخل بمفرده. وقد تم ذلك بالتعاون مع الأمم المتحدة في ٢٠٠٧، حيث اعتمد الجانب العسكري لحفظ السلام على القوات المختلطة التي لا تقتصر فقط على القوات الإفريقية التي تندرج تحت راية الاتحاد الإفريقي، بل أيضًا من أوروبا ومناطق أخرى تحت راية الأمم المتحدة، كما

شمل الوسائل والمعدات اللوجستية التي جلبتها قوات الأمم المتحدة. تطلب التدخل قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٧٦٩ الذي اعتبر تصعيدًا لقرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٥٦٤ الذي كان إنذارًا أخيرًا للحكومة السودانية بقبول قوات حفظ السلام التابعة للاتحاد الإفريقي في دارفور تحت عنوان بعثة الاتحاد الإفريقي في السودان (AMIS)، وقاد جنود رواندا ونيجيريا قوات حفظ السلام في الصفوف الأمامية. ولكن معنى ذلك أن الاتحاد الإفريقي تمامًا كمنظمة الوحدة الإفريقية لم يتمكن أو يرغب في التدخل بمفرده في مسألة ذات جانب إنساني ودبلوماسي خطير.

كما قاد رئيس جنوب إفريقيا السابق تابو إيمبيكي (٢٠٠٩-٢٠١٤) جهود الاتحاد الإفريقي اللاحقة في دارفور لإيجاد حل دبلوماسي دائم، وسعى إيمبيكي إلى تحفيز صيغة لتقاسم السلطة كان له الريادة بها في كل من جمهورية الكونغو الديمقراطية (٢٠٠٢) وزيمبابوي (٢٠٠٧-٢٠٠٨)، ولكنها لم تنجح هذه المرة. كما حاول جاكوب زوما رئيس جنوب إفريقيا تطبيق نفس صيغة السلام الشاملة لحل الأزمة الليبية عام ٢٠١١ مرة أخرى تحت لواء الاتحاد الإفريقي.

لم يكن الالتزام الكامل ببعض القواعد مثل «مسئولية الحماية» أمرًا سهلًا داخل الاتحاد الإفريقي غير أن القاعدة تكتسب ببطء، ويرجع الفضل في ذلك إلى حدٍّ ما للمداولات داخل مجلس السلام والأمن الإفريقي (تم إنشاؤه عام ٢٠٠٤) حيث تعتبر القوة الاحتياطية الإفريقية أحد برامجه. تعتبر القوة الاحتياطية في الواقع سلسلة من القوات الإقليمية، وكانت المبادرة العسكرية لمجموعة التنمية لإفريقيا الجنوبية (SADC) قد اشتركت مع القوات الجنوب إفريقية والتنزانية عام ٢٠١٣ ضد متمردي حركة ٢٣ مارس الكونغوليين أشهر الجماعات المتمردة وأكثرها عنفًا في جمهورية الكونغو الديمقراطية. وقد تم التعامل مع هذا النجاح بقيادة مجموعة التنمية لإفريقيا الجنوبية (SADC) وقرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على أنه انتصار عسكريّ، لكنه يدين بشكل كبير لضغط الأمم المتحدة الدبلوماسي المستمر على رئيس رواندا كاجامي.

عنان في كينيا وإيمبيكي في زيمبابوي: ووساطة دبلوماسية من أجل القيم والديمقراطية

تعكس محاولات إيمبيكي في دارفور وساطته المثيرة للجدل في أعقاب انتخابات زيمبابوي الشائكة عام ٢٠٠٨، مما يعيد إلى الأذهان وساطة عنان في الانتخابات المثيرة للجدل في كينيا عام ٢٠٠٧. كان كلا الرجلين ممثل للدبلوماسية الإفريقية متعددة الأطراف؛ عنان من الاتحاد الإفريقي، وإيمبيكي من مجموعة التنمية لإفريقيا الجنوبية (SADC). وقد توصل كلاهما إلى «حلول» مشابهة أو تسويات أكثر منها حلول، حيث كانت الحلول الحقيقية مستحيلة في الحالتين. استغرق عنان وقتًا أقل بكثير، وترك العقوبات للنهاية متمثلة في اتهامات المحكمة الجنائية الدولية (ICC) للمتورطين في تنظيم العنف الانتخابي (لكن فشلت هذه القضايا أمام المحكمة الجنائية الدولية إلى حدٍّ كبير).

لكن أدت كلتا الوساطتين إلى استمرار مدد الرئاسة التي كانت قائمة قبل الانتخابات، على الرغم من الفوز المحتمل لزعيم المعارضة في العمليتين وضرورة تنصيبه رئيسًا. أسفر العنف والتلاعب عن تزوير شبه مؤكد للنتائج. وبالرغم من عدم تنصيب زعيم المعارضة «المنتصر» رئيسًا في الحالتين، تقلد كل منهما منصب رئيس الوزراء الذي أقيم خصيصًا من أجلهما، إذ كان أدنى من منصب الرئيس ولا ينص عليه الدستور.

كانت نسب التمثيل الشيء الوحيد الذي تم احترامه في تلك النتائج الانتخابية ولكن ليس بمفهوم البرلمان الأوروبي، وإنما بمعنى عدد المقاعد في مجلس الوزراء، حيث حصد الحزب الحاصل على أغلبية الأصوات على أغلب مقاعد مجلس الوزراء. ولم يتم استبعاد أي من الحزبين الرئيسيين.

كان إيمبيكي على وجه الخصوص يقول إن النتيجة المتمثلة في اعتمادات مجلس الوزراء تمثل روح الديمقراطية، بالإضافة إلى أن وجود قادة سياسيين عظماء في إدارة واحدة كرئيس، ورئيس وزراء يمثل قيمة «إفريقية» من الشمولية. كانت شمولية مُصممة بطريقة أبعدت العنف عن الصراع على السلطة، وعليه كانت نهاية المجازر. وهكذا، تم تعزيز القيمة العالمية للحياة البشرية إلى جانب الشمولية.

وتعتبر صيغة مثيرة للجدل لم تتكرر في الانتخابات التي تلت ذلك بعد خمس سنوات في كلتا البلدين. لكنها استطاعت بالفعل أن تضمن وجود أنواع مميزة من السلام، ومن خلاله ضمنت استقرار البلدين لمدة خمس سنوات. سيقول إيمبيكي – ولن يعترض عنان – بأن «دبلوماسيتهم الإفريقية» قد اشترت «حلًا إفريقيًا»، وفي الوقت ذاته دافعت عن أبسط القيم العالمية.

ولا يعني ذلك نضج الدبلوماسية الإفريقية فحسب، بل أيضًا قدرتها على الوصول لشيء جديد – مثير للجدل أيضًا – ربما يعود بالنفع على القارة، أو على تأمل النتائج الانتخابية العادلة في العالم الأوسع.

٦

الدبلوماسية الشرق أوسطية التي لا يمكن التكهن بها: كتالوج تاريخي من الكوارث والتأجيلات

بصرف النظر عن التقارب مع الصين، ربما من الأفضل تناول سجل هنري كسنجر واضعين مصر وإسرائيل في الحسبان حيث ساهم في تعزيز «السلام» بين الطرفين بعد ١٩٧٣، وتفعيل السياسة الأمريكية للمساعدات الخارجية الغزيرة التي تعتبر الموارد العسكرية سمة رئيسية بها حتى لا تتمكن أي من الدولتين الاحتفاظ بأجهزتها الأمنية وطموحاتها بدون الولايات المتحدة. خلق هذا نوع من التبعية وأيضًا توازن القوى بين إسرائيل ومصر بحيث يكون لإسرائيل دائمًا ترسانة أكبر قليلًا لكن بشكل لا يجعل ذلك الميل في الميزان كافيًا على الإطلاق لتغيير الوضع لصالح طرف دون الآخر. يعكس ذلك حب كسنجر النموذجي للتعاون كوسيلة لتنفيذ العلاقات الدولية. ولكن لا يمكن تحقيق هذا الاتفاق الشرق أوسطي بدون الرجوع باستمرار إلى الولايات المتحدة. ربما دعم السلام بين الدولتين ولكنه لم يفعل شيئًا لحل المشاكل الملحة بالمنطقة وخاصةً تلك ما بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

لعله من السخرية أن يكشف كتاب كسنجر الأخير (وربما آخر ما سيكتب) بعنوان «**النظام العالمي: تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ**» أنه لم يتعلم الكثير من التاريخ الكارثي للشرق الأوسط منذ أن كان بمنصبه. يُعد الكتاب دفاعًا شديدًا عن نظام الدولة الوستفالية حيث يعتبر راديكاليًّا نوعًا ما فقد طرح تساؤلًا مفتوحًا حول ما إذا كانت المملكة العربية السعودية دولة وستفالية حقيقية أو دولة إسلامية تسبب كمًّا كبيرًا من المشاكل بالعلاقات الدولية. يخشى كسنجر من نظام

الدولة الإسلامية، لكن في نفس الكتاب يعتبر إسرائيل دولة وستفالية صحيحة رغم أنها بعيدة كل البعد عن ذلك؛ حيث تمدد حدودها بطريقة أحادية الجانب وتتحدى القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة، وتنكث الاتفاقات وتحتل أراضي دول أخرى وترفض السماح بإنشاء دولة للفلسطينيين، بل تحتل وتستغل أجزاء كبيرة من الأراضي الفلسطينية التي وافقت هي نفسها في وقت ما على اعتبارها فلسطينية، كما لو كانت فلسطين خاضعة لسيادة استعمارية عسكرية.

البيئة الفوضوية للسياسة الخارجية والدبلوماسية

الحروب العربية الإسرائيلية

اقترح وعد بلفور لعام ١٩١٧ تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما يهودية. وكان الهدف من ذلك إرضاء الحركة الصهيونية التي تسعى لإقامة «وطن لليهود». لم تر الصهيونية المبكرة هذا الوطن بالضرورة في الشرق الأوسط، وبالأخص ليس بالمنطقة التاريخية لإسرائيل التوراتية. كانت بعض المواقع في إفريقيا وأمريكا الجنوبية على قائمة الاحتمالات. ولكن الإحساس بالحاجة للقيام بشيء محدد وسريع لليهود أصبح ضرورة ملحة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، خاصةً بعد الأعمال الوحشية الهائلة ومحاولة الإبادة الجماعية المتمثلة في الهولوكوست. وافق المجتمع الدولي، وتحول التفويض البريطاني على فلسطين الذي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى إثر سقوط الإمبراطورية العثمانية تفويضًا للأمم المتحدة من أجل الخطوة النهائية نحو إقامة دولة جديدة. كان هناك الكثير من الارتباك أثناء الانتقال من التفويض البريطاني إلى الأمم المتحدة، وقد قاوم السكان الفلسطينيون تلك العملية بالتأكيد عن طريق حرب التحرير التي سميت فيما بعد بـ «يوم النكبة» عندما فر جزء كبير من السكان الفلسطينيين أمام الزاحفين اليهود. استخدمت الحركات الإرهابية اليهودية التمرد المسلح لحث خطى الاستقلال، حتى تمكن «بن جوريون» في النهاية من إعلان قيام

دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. وعلى الفور، شنت جيوش الدول العربية المجاورة هجومًا متعدد الجبهات على إسرائيل. جاء ذلك ليس فقط تضامنًا مع الفلسطينيين، وإنما أيضًا إلى حدٍّ كبير لمقاومة ما كان ليخلق وضعًا سياسيًّا مغايرًا بمنطقتهم وتعقيدًا كبيرًا للتوازن القائم لقوتهم الإقليمية. كما كان ذلك يعني أن جزءًا من الشرق الأوسط لم يعد عربيًّا ولم يعد إسلاميًّا، بالرغم من أن العامل العربي عام ١٩٤٨ كان أقوى من أي عامل إسلامي. كان هناك حركة بطيئة نحو الحداثة تم التعبير عنها بعد ذلك بقليل باستيلاء ناصر والضباط الأحرار على السلطة في مصر، والرغبة العامة في إقامة شبه الجزيرة العربية الجديدة والموحدة. كانت إسرائيل تطفلًا على كل هذه الأحلام.

كانت الجيوش العربية غير متطورة وكانت قيادتها ضعيفة، وقد أصبح ناصر نفسه كضابط شاب أسطوريًّا لمجرد رفضه الاستسلام. كانت القوات الإسرائيلية منتصرة على جميع الأصعدة، وبدلًا من صورة الضحية التي سارت مسلوبة الإرادة إلى غرف الغاز، ولدت صورة وأسطورة «اليهودي المقاتل» التي لم تتغير أبدًا من وقتها. انتهى الهجوم غير الحكيم على منطقة قناة السويس عام ١٩٥٦ - الذي قامت به إسرائيل بالتعاون مع الوحدات البريطانية والفرنسية لضمان منع عبد الناصر من تأميم القناة التي كانت على أرض المصرية - بالتراجع بسبب الضغوط الدبلوماسية القوية من الولايات المتحدة والأمم المتحدة، ولكن عندما تشابكت القوات الإسرائيلية والمصرية خسر المصريون مرة أخرى. وجاء رد عبد الناصر في صورة بناء جيش جديد بأحدث المعدات بمساعدة الاتحاد السوفييتي. فبدت الدبابات رائعة على أرض الموكب وبدت الطائرات الحربية مهيبة واقفة في تشكيل على مدارجها.

وقد ظلت على ذلك الوضع تمامًا حتى دمر الإسرائيليون القوات المصرية وقوات سوريا عام ١٩٦٧. ويمكن قول الكثير عن مناورات عبد الناصر في الفترة السالفة لذلك الهجوم، حيث طالب بسحب قوات حفظ السلام التي نشرتها للأمم المتحدة في شبه جزيرة سيناء كمحاولة لفك الاشتباك بعد ١٩٥٦. كان من المفترض أن تعمل

كقوة عازلة بين المصريين والإسرائيليين. لم يطالب عبد الناصر عام ١٩٦٧بسحبها فحسب، وإنما نشر جيشه المطور في مواجهة الإسرائيليين كاستعراض للقوة. وترى مدرسة فكرية حديثة أن عبد الناصر كان مُقدمًا على خدعة كبيرة، حيث طلب فقط تغيير موقع القوات الخاصة بالأمم المتحدة، وكان قلقه الرئيسي أن الإسرائيليين كانوا يعدون لهجوم على سوريا - التي كانت في ذلك الوقت قريبة جدًّا من مصر سياسيًّا، وكان هناك مطلب شعبي لإقامة الدولة المصرية-السورية للوحدة، أي الجمهورية العربية المتحدة؛ لذا فقد أعد استعراضه العسكري لجعل الإسرائيليين يفكرون مليًّا قبل الهجوم على سوريا، حيث سيكون هناك تهديد مصري من خلفهم. وهنا قلب الإسرائيليون السحر على الساحر وبمنتهى البساطة هاجموا - ببراعة واستباقية - لتدمير القوة الجوية المصرية المصطفة بدقه في مدارجها، وشقوا الدبابات المصرية التي بالتأكيد بدت مهيبة أثناء عرضها، ولكن لم تكن مهيأة للقتال في اصطفافها. احتلوا سيناء كلها إلى ضفة قناة السويس، كما احتلوا مرتفعات الجولان على الجبهة السورية. ومن المفارقات أن الإسرائيليين استخدموا في مواجهة المصريين تكتيكات المدرعات الألمانية - التي كان لجوديريان الريادة في استخدامها أثناء الهجوم على فرنسا - حيث لم يكن هناك تركيز مركزي لهجومهم. فبدلًا من رأس حربة واحد كان هناك رؤوس سهام متعددة مع منح قادة كتيبة الدبابات مطلق الحرية. لم يكن المذهب العسكري المصري ليجيب على أي حال.

أما السادات خليفة عبد الناصر، فقد كان عازمًا عام ١٩٧٣ على استعادة شبه جزيرة سيناء من الإسرائيليين. ففي عيد الغفران - يوم مقدس عند اليهود - عبرت القوات المصرية قناة السويس. واستباقًا لتكتيكات الدبابات الإسرائيلية لعام ١٩٦٧، تم تجميع قوات جبهة السادات الأمامية في وحدات مستقلة صغيرة مسلحة بصواريخ أرض مضادة للدبابات. وبعدم وجود قيادة مركزية ثابتة لم تكن مواقعهم متوقعة، وكلما تقدمت الدبابات، أطلقت أوكار القوات المصرية الخاصة صواريخها المضادة

للدبابات، وكانت المراحل الأولى من الصراع انتصارًا عظيمًا للمصريين، وربما كان الهجوم الإسرائيلي المضاد ينجح في ردعهم، لكن دبلوماسية الطوارئ بمشاركة الدول العظمى - في مقدمتها كسنجر - فرضت وقف إطلاق النار. وكان ذلك للمصريين بمثابة استعادة للروح المعنوية والثقة بالنفس فقد استعادوا سيناء، لكن الأمر تطلب المزيد من الدبلوماسية من جانب كسنجر لاستكمال العملية. ولم تندلع أية حروب أخرى بين مصر وإسرائيل. أما السوريون فلم يستعيدوا مرتفعات الجولان أبدًا. كلما تقدمت دباباتهم أوقفتها ضربات جوية إسرائيلية مركزة، على الرغم من أن المعارك كانت سجالًا بينهم والجدير بالذكر أن كلا الطرفين قد أبديا إقدامًا وفكرًا عسكريًّا راجحًا. ولابد من القول أن هناك شجاعة كبيرة وفكرًا عسكريًّا من الجانبين. ثم استخدم كلا الطرفين وسائل غير مباشرة لمضايقة الآخر، لكن لم تندلع أية حروب أخرى بين إسرائيل وسوريا.

الهجمات الإسرائيلية على لبنان

ساهمت إسرائيل منذ ١٩٧٥ في تنظيم ودعم ميليشيا مسيحية مارونية متحالفة بقيادة الرائد حداد في جنوب لبنان. كان لب عملها هو الحد من تأثير الطموحات السورية في لبنان، وأيضًا بالأخص إقامة منطقة عازلة بين إسرائيل والقوى الفلسطينية التي اتخذت مقرًّا لها تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان عقب إخراجها من الأردن فيما عُرِف بـ«أيلول الأسود» في ١٩٧٠ - ١٩٧١. طردت الأردن منظمة التحرير الفلسطينية بسبب مخاوف من تسارع نمو عدد الفلسطينيين على الأراضي الأردنية لدرجة قد تغريهم بالاستيلاء على الدولة الأردنية. كان العديد من الإستراتيجيين الإسرائيليين مشجعين لهذا الاحتمال، حيث من الممكن أن يحل مشكلة عدم وجود دولة للفلسطينيين واستيلاء إسرائيل على الضفة الغربية - التي كانت تُعتبر حتى ذلك الحين «الوطن» الفلسطيني المُتصور - عام ١٩٦٧ الذي لم تغيره الانتصارات المصرية

في ١٩٧٣؛ لذا كان التصور أن بإمكان إسرائيل أن تبقي بالضفة الغربية بمشكلاتٍ أقل إذا أخذ الفلسطينيون الأردن. ولكن طرد الأردنيين لمنظمة التحرير الفلسطينية ما زادها إلا قوة في لبنان وأصبحت قوة حاسمة في السياسة اللبنانية. وبغض النظر عن المضايقات والقدرات العازلة لميليشيا حداد، كانت مجرد مسألة وقت قبل أن يغزو الإسرائيليون لبنان.

وقد حدث بالفعل عام ١٩٧٨، لكنهم أخفقوا بشكلٍ غريب لدرجة أن القوات الفلسطينية التي تحتل جنوب لبنان تمكنت من الانسحاب بدون خسائر تقريبًا، ولكنهم تسببوا في أزمة لاجئين فلسطينيين كبيرة، حيث ترك الإسرائيليون حداد يحرس المناطق التي استولوا عليها وهرب الفلسطينيون إلى بيروت. وفر نمو مخيمات اللاجئين الفلسطينيين حول بيروت مواقع للمذابح في الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢. فكان الاعتداء هذه المرة على بيروت نفسها باريس شرق البحر الأبيض المتوسط والعاصمة ذات أكثر مزيج إسلامي مسيحي غير مستقر، ولكنه يدار بطريقة مهذبة والمدينة الرئيسية في الأرض التي قدمت بسخاء حزم من خشب الأرز لبناء المعبد الإسرائيلي في القدس في الأيام المزعومة للملك سليمان. وقد وجهت منظمة التحرير الفلسطينية دعوة إلى اللواءات الدولية لتقديم مساعدتها واستعدت لخوض حرب حضرية كانت لتدمر المدينة الجميلة.

بدأت الصدامات بالفعل لكن كفلت جهود دبلوماسية دولية هائلة أن تكف القوات الفلسطينية عن التلويح بأسلحتها وتكتفي بالانتصار المعنوي على الأقل حيث لم تهزم عسكريًّا بالفعل - ولكن كان عليها أن تجد منفى جديدًا في تونس. كان الإسرائيليون سعداء بكون تونس على الجانب الآخر من البحر المتوسط، وبذلك لن تكون قبضة منظمة التحرير الفلسطينية في المنطقة بنفس القدر من القوة. لكن انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية ترك مخيمات اللاجئين الفلسطينيين

دون حماية، كما قتلت ميليشيا حداد سكان صبرا وشاتيلا بدم بارد. تشير بعض التقديرات إلى حوالي ٣٥٠٠ قتيل، معظمهم من الفلسطينيين وعددٍ من المسلمين الشيعة اللبنانيين. ومن ثم، سيعود عنصر الشيعة ليطارد الإسرائيليين.

وكان الهجوم الإسرائيلي الأخير على لبنان بالأخص لاستئصال الميليشيا الشيعية والجماعة السياسية حزب الله الذي يشغل بالفعل العديد من المقاعد في البرلمان اللبناني. فكان قوة حسنة النية في السياسة اللبنانية، وفي الوقت ذاته مدمرة بميليشياتها وتحالفها مع سوريا وإيران التي تُعتبر أكبر معاقل الشيعة في العالم.

لكن قوات حزب الله صمدت وحاربت الإسرائيليين، وتربصت في بادئ الأمر وحفرت الأرض لتمر الدبابات، ثم تجلت لتهاجم من داخل التشكيلات الإسرائيلية. لم يتوقع الإسرائيليون صرامة المقاومة، وقللوا من شأن التدريب الإيراني لحزب الله. وبحلول هذا الوقت، لم يعد المذهب العسكري الإسرائيلي بنفس الجرأة التي كان عليها في حرب عام ١٩٦٧، وعلى أية حال لم تكن أرض لبنان ممهدة لمثل هذا النوع من الهجمات متعددة الرؤوس. كان النهج تقليديًا ولم تجد ميليشيا حزب الله صعوبة في التنبؤ بها. ولكن أدرك الإسرائيليون عند انسحابهم أن إيران ستكون العدو المستقبلي وأن الرئيس الإيراني الجديد أحمدي نجاد الذي تم انتخابه عام ٢٠٠٥ لا يمانع استعراض القوة، وبالطبع لن يتوانى عن تنبيه العالم إلى برنامج التطوير النووي الإيراني.

كما خسر فتح حزب الأغلبية السياسي بمنظمة التحرير الفلسطينية الذي فشل في تقديم أي شكل من أشكال الاستقلال الحقيقي بسبب نجاح السياسات الإسرائيلية وأصبح فاسدًا وغير فعال في الانتخابات التشريعية الفلسطينية عام ٢٠٠٦ أمام حماس التي حصلت على ٧٤ من أصل ١٣٢ مقعدًا. كانت حماس مدعومة من قبل سوريا وإيران، ولكن كيف عادت فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية من منفاها

في تونس لتصبح حكومة ما يسمى بالسلطة الفلسطينية؟ ننتقل الآن من الحروب إلى الدبلوماسية المساوية لها في التعقيد بالمنطقة، والتي شملت الولايات المتحدة على المستوى الرئاسي، لكن كان للرئيس المصري السادات المبادرة لتحقيق إنجاز مباغت لا رجعة فيه.

تأمل: الفرعون يذهب لمدينة داوود

في الكتاب المقدس والأساطير المتضاربة بالمنطقة، كان للشعب اليهودي في الواقع علاقة وطيدة مع اللبنانيين والإيرانيين والمصريين. وكما ذكرنا من قبل، ترجع العلاقة مع اللبنانيين إلى إرسال الملك حيرام خشب الأرز من لبنان إلى الملك سليمان لبناء المعبد، أما العلاقة مع الإيرانيين - أو الفرس كما كان يطلق عليهم في ذلك الوقت - فلأنهم أطلقوا سراح الشعب اليهودي من الأسر البابلي لإعادة بناء ذلك المعبد. ومع المصريين؛ لأنهم قبل أن يستعبدوهم نصّبوا يوسف رئيسًا للوزراء. ثم جاء داوود بعد سنوات كثيرة ليؤسس في القدس مقرًّا لمملكة إسرائيل الوليدة التي تكونت من مجرد مجموعة من القبائل.

وفي عام ١٩٧٧، بعد أربع سنوات من استعادة مصر لسيناء، ذهب الرئيس السادات إلى القدس. لم يعلم الإسرائيليون برغبته في الحضور سوى قبلها بأيام، وقد ذعروا إزاء هذا التطور المفاجئ وغير المتوقع. وأدركوا أنه يتعين عليهم الموافقة، وإلا سيتم اعتبارهم الجانب الذي رفض فرصة للسلام. كان السادات قد تشاور في قراره مع مجموعة من المستشارين المقربين له، وجميعهم لم يوافقوا على هذه المبادرة. ولكن نظرًا لإصرار الرئيس على المضي قدمًا كانت تلك لحظة «فاعل عقلاني» تمامًا مثل حالة كاوندا مع دي كليرك في جنوب إفريقيا - تتسم بالاندفاع والثقة بالحدس. والفرق هنا أن المصريين كان لديهم كم لامتناهٍ من المواد المطلوبة لإعداد ملف عن إسرائيل وقيادتها. أخذ السادات هذا الملف معه، ولكنه بدا واثقًا بشكل حدسي

في تحقيق إنجاز أخلاقي. والجدير بالذكر أن بعد شن حربٍ على إسرائيل كان ليعرف من خلال الإحاطات الإعلامية السابقة والمخاطر والتوازنات بين المكاسب والخسائر التي كان على وشك مواجهتها إذ لم تكن العمليات والسياسات التنظيمية في الماضي غائبة تمامًا. ولكنه بالتأكيد لم يتصرف وفقًا لمخزون معين، كان ما فعله جديدًا تمامًا وأصيلًا وجريئًا.

في أعقاب زيارته وخطابه المذهل ذي النبرة الأخلاقية أمام الكنيست الإسرائيلي والتغطية الصحفية الدولية التي تلقاها والتي كانت جميعها تقريبًا مفعمة بالأمل، بدا أن نوعًا من السلام كان ممكنًا، وأن المصريين قد احتلوا المكانة الأخلاقية الأعلى[١٧]. أما السادات، فقد شعر بأنه في مأمن بعد أن حقق انتصارًا عسكريًّا (على الرغم من أنه - كما ذكر أعلاه - لو استمر صراع ١٩٧٣، لم يكن ليتحقق ذلك الانتصار) وحقق انتصارًا آخر دبلوماسيًّا أو أخلاقيًّا. استضاف الرئيس جيمي كارتر كلاً من السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي بيجن في كامب ديفيد عام ١٩٧٨، ويبدو أن عملية «السير في الغابات» الشهيرة بقيادة كارتر - الذي أجرى فيها دبلوماسية شخصية مرتديًا سترة - قد تمكنت بالفعل من ترسيخ سلام رسمي بين مصر وإسرائيل. كانت تلك العملية عبارة عن تعاون بين أقل ثلاث «فاعلين عقلانيين» إذ تعاملوا بعفوية في موقف غير رسمي.

كان من المفترض أن يتلقى كل منهما جلسات إحاطة وتدريب، ليس بمعنى التدريب على ردود الأفعال المخزونة، حيث لم يتحقق السلام بينهما من قبل، ولكن تدريب على التفاوض على التنازلات والشروط. وحقيقة أن المفاوضات جاءت في النهاية مباشرة إلى حد كبير مما لا يعني عدم وجود مثل هذه الاستعدادات.

(١٧) Mohammed Sameer, "Sadat, the Egyptian President in the Knesset", *YouTube*, www. youtube.com/watch?v=aetcAAWc8DA

لاح تحذير واحد في الأفق، كان هذا سلامًا بين مصر وإسرائيل. لم تتم دعوة الفلسطينيين إلى كامب ديفيد، والسادات لم يتحدث نيابة عنهم أو عن العالم العربي، بل تحدث باسم مصر فقط. وبالتأكيد لم يتحدث عن إيران التي كانت تعتبر حينذاك لاعبًا هامشيًّا غير مهم في المعادلة الفلسطينية. قامت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، وفجأة اقتحم الحضور الشيعي – الذي بدا غير متوقع وأحيانًا غير عقلاني – المشهد بتداعيات دولية وشرق أوسطية، مما أثار ارتياع الولايات المتحدة التي شجعت العراق بقيادة صدام حسين على شن حرب ضد إيران ما بين ١٩٨٠ و١٩٨٤ بتمويل ضخم يبث عبر المملكة العربية السعودية. لم ينتصر صدام في تلك الحرب ولكنه اكتسب قوة مفاجئة.

انزعج الفلسطينيون إثر استبعادهم من كامب ديفيد مدركين أن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية قد تم تهميشها داخل فلسطين بنفيها إلى تونس. كما أدى عدم وجود أي تقدم دبلوماسي أو مفاوضات على أرض الواقع إلى انتفاضهم فيما عُرف بالانتفاضة الأولى ١٩٨٧–١٩٩١. كما شهد عام ١٩٩١ أيضًا قيام صدام حسين بعد اكتساب الجرأة من دعم الولايات المتحدة له في حربه ضد إيران بخطئه المصيري الفادح إذ غزا الكويت، وتسبب في حرب الخليج الأولى. كانت المنطقة مشتعلة، لدرجة أن سوريا أرسلت قواتها للقتال إلى جانب الولايات المتحدة وتحالفها، ونسي الجميع الفلسطينيين. لم يكن هناك مكان في «النظام العالمي الجديد» – الذي ظهر على ما يبدو لتعزيز سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩ – لشعب يبدو أنه محكوم عليه بالعيش على هامش الدبلوماسية والقومية.

مزيد من التأمل: أوسلو في السراء والضراء

لقد رأينا في لوساكا عام ١٩٨٤ كيف استخدمت الجهات الفاعلة في المسار الدبلوماسي الأول دبلوماسية المسار الثاني لاختبار السبل المحتملة للمسار الأول المستقبلي أو المفاوضات الحكومية الرسمية. بعبارة أوضح، يشير المسار الأول إلى

الدولة الرسمية أو دبلوماسية الوكالة الدولية المعترف بها، بينما يشير المسار الثاني إلى جهات فاعلة غير رسمية. ومن النادر أن تتمكن مبادرة للمسار الثاني من تحقيق نجاح دبلوماسي كبير دون الإشارة أولًا إلى علاقة مستقبلية مع المسار الأول. وربما كان الاستثناء في العملية التي أدت إلى اتفاقات أوسلو - التي بدأت عام ١٩٩٣ عندما فكر مجموعة من الأكاديميين في خطة سلام تشمل الفلسطينيين وتحاول إرضاءهم والإسرائيليين. تناولوا ما خشي «الملائكة» مثل السادات وكارتر أن يقتربوا منه. ومن المثير للدهشة أن خطتهم التفصيلية كانت جريئة ولكن واقعية بما يكفي لاكتساب إعجاب وتبنٍّ فوري من قبل القائمين على المسار الأول، أو لعل «تكيف» هو المصطلح الأفضل هنا حيث بدأت أوسلو ٢ في وضع التفاصيل قيد التنفيذ، وكانت هذه المحادثات في المرحلة الثانية من عملية أوسلو بقيادة مفاوضي المسار الأول، بالرغم من عدم تصورها أو ترتيبها مسبقًا في المرة الأولى.

لقد وضعت أوسلو ٢ عام ١٩٩٥ خطة تفصيلية لمراحل قيام دولة فلسطينية، وأولها: إقامة السلطة الإدارية الفلسطينية. كان ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية المهمشة في تونس في حاجة ماسة إلى المشاركة في العملية وأن تكون السلطة الإدارية معهم. لكنهم أخذوا وفدًا هيكليًّا إلى المحادثات، حيث كان واحد فقط من بينهم محامٍ يتحدث الإنجليزية، ويمكنه فهم تفاصيل الاتفاقات النهائية. ومع ذلك، لم تكن مشكلة الاتفاقات النهائية في صياغتها - رغم وجود نظام ضمانات قد يساعد بالتأكيد - ولكن في تنفيذها في وقت لاحق. وكان الجزء الأصعب والأكثر إثارة للجدل في الاتفاقات تقسيم الأرض إلى فئات «أ»، «ب»، «ج»، حيث تسيطر إسرائيل على الأراضي من الفئة «ج» ولكنها تحولت في النهاية للفئة «ب»، وتخضع أراضي الفئة «ب» للسيطرة الإسرائيلية الفلسطينية المشتركة، ولكنها تحولت في النهاية للفئة «أ». أما الفئة «أ» فهي جزء الأقليات حول المدن الفلسطينية الرئيسية فكانت منذ البداية تحت سيطرة السلطة الفلسطينية. وبذلك ستنشأ دولة فلسطينية كاملة عندما ينتهي نقل الأرض إلى

أيدي الفلسطينيين. لكن هذا لم يحدث حيث بدأت المستوطنات الإسرائيلية تهيمن على أجزاء كبيرة من أراضي الفئة «ج» والفئة «ب» ـ وكذلك لم تسلم أراضي الفئة «أ» من التدخلات الإسرائيلية حيث سيطرت إسرائيل على أغلب الموارد المائية التي لا يمكن بدونها زراعة الأرض بشكل سليم. كما أغلقت إسرائيل المطار الفلسطيني الوحيد كي يتطلب الوصول إلى «فلسطين» أولًا دخول إسرائيل والخضوع للفحص الأمني، أو الدخول عبر الأردن بكل تاريخها الفلسطيني المضطرب. وكانت غزة منطقة منفصلة جغرافيًّا، وبالرغم من سحب رئيس الوزراء للمستوطنات الإسرائيلية من غزة تضاعفت في الضفة الغربية.

قاد التقدم البطيء الذي يكاد يكون منعدمًا في نقل الأراضي والنمو المضاد لمستوطنات السلطة الفلسطينية الجديدة إلى أزمة مصداقية مع شعبها. وقد ضاعف عرفات نفسه المشاكل بعدم تحوله من دور زعيم الفدائيين إلى شخصية رئيس الوزراء. فكانت الإدارة الفلسطينية فوضويّة ومُرَوّعة، وأصبحت فاسدة ومدفوعة، لكن بقيت الأرض هي القضية الرئيسية. وقد بدا أن وعود اتفاقات أوسلو محكوم عليها بالفشل، وتوصل الإسرائيليون إلى أنه من الأفضل عدم وجود منظمة التحرير الفلسطينية في تونس البعيدة، ولكن قريبة تناشدهم في علاقة تابعة. اجتمع الرئيس الأمريكي كلينتون مع عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي باراك في كامب ديفيد عام ٢٠٠٠ في محاولة أخيرة لإنقاذ اتفاقات أوسلو، ولكن دون جدوى. وشبت الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ واستمرت حتى عام ٢٠٠٥. وعلى عكس الانتفاضة الأولى التي اتسمت بالعفوية الحقيقية، كانت الثانية بدافع من منظمة التحرير الفلسطينية كرمز عنيف لمقاومة سوء النية الإسرائيلي. ولكنها لم تغير السياسة الإسرائيلية. وفي ٢٠٠٥ اعتلى الرئيس أحمدي نجاد منصة الحكم في إيران بسياسته الخاصة بالتنمية النووية وعدائه الواضح للصهيونية. وقد حققت حماس بدعم من إيران عام ٢٠٠٦ فوزًا كبيرًا في الانتخابات الفلسطينية، واندلعت حرب أهلية في فلسطين بين حماس ومنظمة

التحرير الفلسطينية التي عزفت عن تسليم السلطة والتي تدعمها الولايات المتحدة البعيدة كل البعد عن الصرامة في المطالبة بمراقبة النتائج الديمقراطية. أجبرت حماس على الخروج من الضفة الغربية، ولكنها ظلت مسيطرة على غزة. وتبع ذلك ثلاثة حروب بين غزة وإسرائيل.

قبل أن نعود للحرب ربما من المفيد تقديم ملاحظتين: الأولى بسيطة، وهي الصعوبة التي يواجهها المسار الثاني في وضع الشروط أو المطالبة بضمانات لمتابعة المسار الأول لإنجازاتها. وبمجرد أن يتابع المسار الأول أو يتولى عملية التفاوض يصبح الأمر متروكًا للممثلين الرسميين في إطار عملية رسمية للتفاوض بشكل مهني وصحيح. وهذا يقودنا للملاحظة الثانية: لم تتفاوض منظمة التحرير الفلسطينية بشكل جيد في أوسلو٢، لم يكن لديها خبرة أو اطلاع واسع بما يكفي للمشاركة فيما بدا إنجازًا مذهلًا رغم أنه محفوف بالمخاطر. ويتطلب الأمر مخاطرة شديدة تحت أي ظرف من الظروف ولكن مخاطرة بدون تفاوض كافٍ كانت شديدة الخطورة. لم يكن لدى عرفات ووفده تاريخ في البحث أو تاريخ وثقافة العمليات التنظيمية والتدقيق الذي ينبع مما تطبقه الوكالات والوزارات التنافسية على بعضها البعض. ربما كان عرفات «فاعلًا عقلانيًّا» مدفوعًا بسعي أخلاقي ووطني طوال حياته، لكن يبدو أنه أيضًا مدفوع باليأس، وهذا أقل العناصر طلبًا في أي نوع من «العقلانية».

غزة ومصر وإسرائيل

زاد التاريخ الحديث من تعقيد الصورة متمثلًا في هجمات ١١ سبتمبر في ٢٠٠١. وحرب الخليج الثانية عام ٢٠٠٣، حيث اقتحمت الجيوش الغربية العراق. ونتيجة للانتفاضة الثانية، تم تأسيس «رباعي» يضم الولايات المتحدة والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا عام ٢٠٠٢ بهدف أن يكون نوعًا من «الإلزامية» الدبلوماسية في الوضع الإسرائيلي/ الفلسطيني، لكنه كان ينقصه الجهات الفاعلة الرئيسية، إذ ربما

كانت من المصلحة اعتبار إيران من بينها. وكان لمصر – التي أصبحت بقيادة السادات أيقونة سلام مع إسرائيل – الآن مصلحة مشتركة مع إسرائيل لاحتواء حماس في غزة. كان القلق المصري تجاه حماس بشأن علاقتها بجماعة الإخوان المسلمين المحظورة في مصر والتي تعتبر الجهة المنظمة الوحيدة التي تعارض خلفاء ناصر والسادات ممن حكموا البلاد – بزيهم العسكري – بطريقة تفتقر بشدة إلى الإبداع وبحس متزايد من المصالح الشخصية. ولم يكن من قبيل الصدفة أن أكبر مظاهرة شعبية للربيع العربي كانت في شوارع وميادين القاهرة. ولكن كان ذلك يعني لغزة الحصار بين نقاط التفتيش الإسرائيلية من جانب، والمصرية من الآخر وحصار بحري إسرائيلي من جهة البحر. قام مسلحون من غزة بإطلاق صواريخ محلية الصنع على إسرائيل تسببت في أضرار بسيطة، ولكن فتحت المجال لرد فعل إسرائيلي قاسٍ. وقد سببت هجمات ٢٠٠٨/٢٠٠٩ و٢٠١٢ و٢٠١٤ دمارًا هائلًا، بل إن هجمات ٢٠١٤ تركت أثرًا لخسائر ودمار لمدينة ربما أصبحت أكبر معسكر اعتقال أو بطريقة أقل حدة أكبر جيتو للأقليات بالمعنى الأوروبي القديم لأحياء اليهود. لن يتم الوصول لأي حل أو حتى تسوية لمشاكل هذا الجزء من العالم حتى تقام مفاوضات ناجحة ليس فقط على الصعيد الإسرائيلي/ الفلسطيني، وإنما أيضًا بين الفصائل الفلسطينية، وتتفق إسرائيل ومصر على نتيجة مشتركة، وتطمئن إيران إلى أن حليفتها حماس تنال معاملة عادلة. وبالحديث عن المعاملات العادلة، لم تحدث انتخابات فلسطينية منذ ٢٠٠٦. وإن وجدت جميع الأطراف المشاركة نفسها قادرة على التعامل مع بعضها البعض، تبقى بالطبع قضية الأرض. حتى لو تم سحب جميع المستوطنات، أو وافقت فلسطين على المستوطنات المتبقية بحقوق محلية مستقلة على سبيل المثال، أين ستنتهي إسرائيل بالضبط وتبدأ فلسطين؟ أين ستكون الحدود؟

الحدود كظاهرة تتوسع

على خلاف جميع النزاعات الأخرى، حيث يتم ترسيم الحدود في اتفاقيات أو معاهدات سابقة، فإن الحدود بين إسرائيل وفلسطين قد تغيرت بشكل كبير على مر السنين، وكان كل تغيير يؤدي إلى انكماش فلسطين.

كانت الحدود الأصلية - تحت ولاية الأمم المتحدة والتي كانت تهدف إلى ترسيم الحدود الإقليمية لإسرائيل - هي ذات الحدود عند الاستقلال عام ١٩٤٨. ولكن هزيمة الجيوش العربية في ١٩٤٩ أدت إلى زيادة كبيرة في حجم إسرائيل حيث احتلت القوات العسكرية أراضيَ تم الاستيلاء عليها من الجيران المهزومين، وبالفعل عرفت الحدود الجديدة دوليًّا باسم «الخطوط الخضراء». وكذلك أدت حرب ١٩٦٧ إلى دفع الحدود للأمام مرة أخرى مما يعني زيادة في المساحة وإن لم تبق جميعها (استعادت مصر سيناء عام ١٩٧٣، وأصبحت الضفة الغربية الأردنية «الدولة الفلسطينية المستقبلية»، وإن كان بها عدد هائل من المستعمرات اليهودية وتسيطر إسرائيل على معظم أراضيها، ولكن ضمت إسرائيل الجولان السورية إلى حدودها). حاولت الحدود بوثيقة جنيف لعام ٢٠٠٣ الاعتراف بالأمر الواقع، وهي تمثل أقصى قبول دولي رسمي لإسرائيل الموسعة، ولكنها لا تشمل المستوطنات، ولا تعترف بمزيد من التسلل إلى الأراضي الفلسطينية من خلال الجدار الإسرائيلي. ويبدو أنه لو فرضًا تم التوصل لحل لقضية المستوطنات؛ سيمثل الجدار الحدود الوحيدة المقبولة للدولة الإسرائيلية. وسوف تصبح فلسطين إمارة صغيرة. وفي حال بقيت المستوطنات امتدادًا رسميًّا لإسرائيل، ستصبح فلسطين عقدًا من «المدن الفلسطينية» المنفصلة ذات القليل من المناطق الزراعية النائية أو التواصل المؤكد. في ضوء إعلان بلفور الأصلي - الذي اقترح (بالتأكيد بالمقارنة مع الواقع اليوم) نوعًا من التقسيم العادل - هناك رقعة ضئيلة للغاية يطلق عليها الدولة الفلسطينية. وتبدو مشكلات الدبلوماسية المستقبلية مستعصية.

٧

الأصيل والدخيل: شياطين إسرائيل في الألفية الجديدة

بعد تعزيز إسرائيل لمكانتها في الشرق الأوسط، لم يبق سوى القليل من المشككين في حقها في الوجود، بينما يشكك الكثيرون في حقها في الوجود داخل حدودها التوسعية، كما يشككون أيضًا في معاملاتها للفلسطينيين الذين يعيشون داخل حدودها، وقد حكم عليهم في المستقبل المتوقع أن يحرموا من حقوق المواطنة، ويشككون بالطبع في حق احتلال المستوطنين للأراضي الفلسطينية الرقعة تلو الأخرى. ولكن حيث تتضمن تلك الحدود السكان الفلسطينيين الذين زادوا سواء بطرق التكاثر الطبيعي أو بسبب طردهم من الأراضي الفلسطينية بدأ الإسرائيليون يشعرون بوجود أزمة داخلية لا تقل خطورة عن الأزمات والتهديدات الخارجية التي تواجهها. ويزيد ذلك من فكرة عدم الأمان والحاجة إلى الأمننة الدقيقة والشعور بالتهديد الوجودي لطبيعة الشخص اليهودي ذي الهوية اليهودية داخل الوطن اليهودي الذي كان جوهر الدولة اليهودية. ماذا لو تجاوز عدد الفلسطينيين داخل حدود إسرائيل عدد اليهود؟ وماذا لو أدت الأعداد الهائلة والممارسات الثقافية التي تشمل الممارسات الدينية لتغيير الهوية اليهودية القائمة على ثقافة يهودية بحتة؟

يعتبر تحليل العالم اليهودي أوريل أبولوف مثالًا على الأبحاث العلمية المتميزة التي تمزج بين النظرية والتحليل، حيث تناول ببراعة فكرة الأمننة العميقة للـ«شيطان الديموغرافي» بإسرائيل، أي تجاوز عدد السكان الفلسطينيين داخل إسرائيل عدد السكان اليهود، وكيف أنه «تهديد وجودي» حقيقي. نشأت النظرية التي يتناولها بشكل أساسي من مدرسة كوبنهاجن للعلاقات الدولية، والتي أضافت إلى اهتمام المدرسة

الإنجليزية بالسياق التاريخي تأكيدًا على التكوينات الاستطرادية. ولكن بالطبع هناك تعقيد في نهجها، فإن تأسست الدولة بطريقة تبادلية كما يصفها فوكو، فكيف لها أن تلعب دورًا حقيقيًّا في بناء مواطنيها؟ ما طبيعة حلقة التغذية الرجعية؟ ما خصائص الدائرة الفعالة عندما تعطلها كل أنواع الاضطرابات والحواف المتعرجة؟ والحقيقة أن تلك التساؤلات لا تثير مخاوف أبولوف، وإنما يشغل نفسه بوضع تحليل تفصيلي للخطاب الإسرائيلي المتعلق بالتهديد الديمغرافي الفلسطيني. وقد تناول مدى خطورة ذلك التهديد الذي يصل لمرتبة التهديد الوجودي. فالهوية وممارستها وأمنها وضمانها على المحك. ولا تزال أهمية ذلك بالذاكرة على أرض أعلنت أن هدفها استعادة الهوية اليهودية بعد الهولوكوست وما سبقها من قرون التهميش الأوروبي، جاء هذا الإعلان بقيام هذه الدولة القادرة على فعل ذلك داخل وطن لليهود حيث يمارس اليهودي هويته، وحيث يكون اليهود والهوية اليهودية بمأمن وإن اضطروا للقتال من أجل ذلك. ولطالما تم تهديد تلك الدولة من الخارج ولكن الآن يأتي التهديد من الداخل.

قد ينبع العداء تجاه الفلسطينيين وفكرة إقامة الدولة الفلسطينية – من بين أمور أخرى – من عدم الرغبة في فعل شيء لاستيعاب التهديد. لكنه أضاف إلى الشعور بأن كل شيء يشكل تهديدًا في نفس الوقت الذي أدى فيه إلى جميع أشكال الارتباك والعداء في السياسة الداخلية والسياسة تجاه فلسطين كمفهوم وسلطة إدارية. وبعد تسوية الأمور مع الأعداء «التقليديين» في مصر والأردن، وانشغال سوريا بمخاوف أخرى، وسكون جامعة الدول العربية بشكل عام رغم خطاباتها التي بالكاد تدفع القضية الفلسطينية أو أي قضية قد تهدد إسرائيل، فإن الحاجة لعدو قريب وإن لن يكن مجاورًا قد تحققت في إيران.

بلاد فارس التي ولدت إسرائيل والمسيحية

هناك الكثير من المفارقات في تاريخ المنطقة، فقد لاحظنا قيام الملك حيرام بتقديم أرز لبنان لمعبد الملك سليمان في الرواية التوراتية، وليس لدينا أي دليل آخر. ولكن هناك أدلة على الأخلاقيات السياسية الفارسية التي سمحت لليهود في الأسر البابلي بالعودة إلى القدس لإعادة بناء معبدهم الذي اكتمل حوالي عام ٥١٦ ق.م. وجاءت الأدلة في شكل أسطوانة قورش (في حوزة المتحف البريطاني) منذ عام ٥٣٨-٥٣٩ ق.م. والتي وُصفت بأنها أول ميثاق لحقوق الإنسان في العالم، بينما هي في الأصل قرار الملك قورش بالحرية الدينية والتي ربما جاء بنصها أن لليهود الحق في إعادة بناء معبدهم وممارسة عبادتهم بحرية. وبالفعل يروي سفر أستير كيف حمى الملك الفارسي أخشورش (ربما كان هو نفسه خشايار الأول ٥١٨-٤٦٥ ق.م. الذي شن الحرب على اليونان) اليهود الذين بقوا في بلاد فارس بدلًا من العودة إلى القدس في الموجة الأولى. فقد كانت المؤسسة الدينية للموجة الأولى بقيادة شخصيات توراتية مثل عزرا هي التي جمعت وعززت أسس ما نعرفه اليوم بالعقيدة اليهودية التقليدية والكتاب المقدس الذي يتناول أسس العالم، وأمة إسرائيل وطقوسها وتاريخها المبكر.

ولعل مفارقات تأثير بلاد فارس على المسيحية في بدايتها أكبر من ذلك، حيث اعتمدت على شخصية زرادشت الغامضة (الزرادشتية في عهد نيتشه)، الذي توفي حوالي ٥٥١ ق.م. وتمامًا مثل بوذا، لم يتم كتابة أي كتاب مقدس لمئات السنين بعد وفاته. ومع ذلك، فإن الأساس الرئيسي لتعاليمه سبقت المسيحية، وشملت عالمًا من الثنائيات يحتوي على الخير والشر، والجنة والجحيم، والنور والظلام، وتجسيد هذه الثنائيات في كائنات روحية قوية (أي ما نعرفه الآن بالإله والشيطان)، والمسيح المنقذ الذي ولد من عذراء، ثم محاكمة نهائية وبعث.

اشتملت صراعات الكنيسة المسيحية المبكرة بهيئاتها المتشعبة مع تنافسها على خيوط مبكرة من الغنوصية ثم المانوية المشتقة جزئيًّا على الأقل من الفكر الزرادشتي، كما تضمنت شعبية الطائفة الزرادشتية الميثراسية بين الجنود الرومان الذين خدموا على الجبهة مع بلاد فارس (برغم الجدل القائم حول السجل التاريخي) ولادة العذراء في ٢٥ ديسمبر وعلامة الصليب في دائرة. ولكن يبقى الجدل حول مدى تأثير كل تلك العناصر على المركب النهائي الذي اعتبره الإمبراطور قسطنطين رسميًّا عام ٣٢٥ م العقيدة المسيحية بخطوطها الرئيسية كما نقبلها اليوم.

كان الفرس والزرادشتية متعددي الثقافات، يقال إن الإسكندر الأكبر لم يمت، وإنما رأى المزايا الثقافية والعلمية لبلاد فارس وعاش طويلًا كأحد ملوكها. كان «فكر الإسكندر» في جدل مستمر مع ظهور الإسلام، واعتبر هذا الفكر مهمًّا بما يكفي لتنظيم ومناقشة أعمال أرسطو وأفلاطون حتى أثناء فقدانهما في «العصور المظلمة» الأوروبية. وتحتوي الملحمة الزرادشتية من القرن العاشر، الشاهنامة - كتاب الملوك - على قصة تدل على ذلك، حيث يقابل الإمبراطور الروماني (فسبازيان) حكيم زرادشتي يحاضره حول تعاليم كل الديانات العالمية الرئيسية، بما فيها الديانات الصينية والهندية، ويختتم بتوبيخه بألفاظ المسيحية، سائلًا إياه عما سيظنه عيسى بن مريم عن الغرور وشهوة الدم الروماني. كان هذا النوع من التراث الثقافي الكوزموبوليتاني (ما بعد الاستعماري) - الذي اعتبره المعلقون الغربيون على الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ أصولية شيعية اختزالية، ما واجه المفاوضين الأمريكيين والأوروبيين بشأن مسألة القدرة النووية الإيرانية. لم يتحقق الفتح الإسلامي لبلاد فارس إلى نهاية القرن العاشر. وظلت غالبية بلاد فارس للقرن الخامس عشر تتبع الطائفة السنية. وبقدر ما شبع الإسلام الذاتية الإيرانية فقد سبقه ألف عام ونصف من الثقافة العميقة التي كان لها نفس التأثير. تعتبر أعمال الشعراء العظماء من القرنين الثالث عشر والرابع عشر مثل الرومي وحافظ أمثلة على ذلك، حيث يبجلون الله، ولكنهم يستمدون هذا من التصوف والميتافيزيقيا.

لكن هل كانت إيران في عهد آية الله أصولية بشكل خطير؟

بدأ العداء الأمريكي لإيران الحديثة بخلع حليفها الشاه رضا بهلوي عام ١٩٧٩. وقد استثمرت الولايات المتحدة الكثير في نظامه، وبالفعل صممت بالتعاون مع البريطانيين خروج حكومته فيما اعتبر حتى في ذلك الوقت فضيحة بترولية كبيرة. إنما ثورة ١٩٧٩ - إلى جانب كونها غير متوقعة فقد رسخت في أذهان الولايات المتحدة باحتجازها للعاملين في السفارة الأمريكية رهائن، ثم محاولة إنقاذ أمريكية عسكرية فاشلة، مما تسبب في شعور الولايات المتحدة بإذلال هائل؛ لذا موَّلت جهود صدام حسين من خلال المملكة العربية السعودية ودعمته بشدة في غزو إيران عام ١٩٨٠.

أما إسرائيل، فقد كان قلقها بشأن دعم إيران لحماس وحزب الله - كما أوضحنا - سببًا رئيسيًّا للعداء. ولعل أكثر عناصر الخوف الموجهة نحو إيران يكمن في القناعة العميقة بأنها تطور قدرة كافية للحصول على أسلحة نووية. لم ترغب إسرائيل التي تمتلك ١٠٠/٨٠ رأس نووي - بشكل غير معلن لكنه متوقع بقدر كبير - في إقامة توازن قوى حقيقي مع إيران المسلحة نوويًّا. كان ميزان القوة مع مصر بإدارة أمريكية ولم يشمل الأسلحة النووية على أية حال، ولكن الاضطرار لخوض ترتيبات توازن قوى قائم على الردع النووي المتبادل مع إيران من المتوقع أن يشمل سيطرة إيران على بعض «السلوك الحسن» الإسرائيلي بما في ذلك داخل فلسطين، مما يعني نهاية الحرية الإسرائيلية؛ لذلك عملت كل من العلاقات العامة الأمريكية والإسرائيلية بجدية على تصوير النظام الإيراني على أنه مظلم وشرير قدر الإمكان. أما من ناحية الإيرانيين، فلم يساعدوا أنفسهم إذ قاموا بسلسلة متتالية من الإدانة المهينة القائمة على الطائفية الدينية ضد الغرب.

وكما قال جياندومينكو بيكو؛ وكيل الأمين العام السابق للأمم المتحدة – الذي تفاوض على نهاية الحرب بين العراق وإيران وإطلاق سراح العديد من الرهائن الغربيين في لبنان حتى عام ١٩٩٢ – لم يكن هناك أبدًا أعمال وحشية مدبرة من قبل الشيعة أو إيران ضد هدف غربي رئيسي. علاوة على أن دعم إيران لبشار الأسد كرئيس لسوريا لم يكن بسبب انتمائه الشيعي، فالأسد من فرع الشيعة العلوي ذي معتقدات التوافق بين الأديان بشكل كبير، مثل الثالوث والانحدار من الملائكة الساقطة والخضوع لتناسخ الأرواح المتكرر (مثل المسيحيين)، بينما يتقدمون نحو العودة إلى السماء، وترقب عيد الميلاد ويوم عيد ماري ماجدولين، وشكل القداس يحتوي على النبيذ، ولا يعترف به العديد من علماء السنة إسلاميًّا على الإطلاق. اتخذ حافظ الأسد – والد الرئيس بشار – مسارًا واقعيًّا، حيث جعل العقيدة في سوريا تبدو سنية بقدر المستطاع. ومع ذلك، كان هو نفسه زعيم حزب البعث المخصص للتحديث العلماني. وبالرغم من أن آية الله الخميني قد اعترف بالعلويين كفصيل إسلامي، فإن التحالف مع سوريا يدين أكثر للرغبة في تأمين حلفاء بالمنطقة، أي أنه يتعلق بسياسة القوة بقدر ما يتعلق بالدين وبقدر ما يتعلق بالاستقرار طويل المدى لدولة مجاورة وحكومتها الثورية. وفقًا للمعتقدات العلوية، لا شك أن دعم إيران ليس أصوليًّا.

كما يجب الإشارة إلى أنه رغم دعم إيران لحزب الله وحماس، لم تشجع أو تمول أيًّا منهما للقيام بأعمال عنف ضد إسرائيل. لم يكن هناك هجوم جماعي، أو موجات متتالية من القنابل الانتحارية. بل لم يكن هناك سوى صواريخ محلية الصنع من حماس ودفاع عن لبنان من حزب الله. باختصار، يبدو أن السياسة كانت قائمة على المضايقات والضرر العنيف، ولكن ليس التدمير.

وعليه، فالسبب العميق وراء العداء الإسرائيلي لإيران يرجع لتوازن القوى القائم على الأسلحة النووية. وهو نفس السبب لمعاداة المملكة العربية السعودية لإيران. فبغض النظر عن التقسيم الواضح للفصيلين السني والشيعي، هناك ببساطة مسألة سياسة القوى والهيمنة الإقليمية.

العداء بين المملكة العربية السعودية وإيران

من الحقيقي أن إحدى الدولتين سنية والأخرى شيعية، مما يؤثر على علاقتهما غير المستقرة في كثير من الأحيان، ولكنه ليس المحدد الوحيد. من المؤكد أن إيران كانت غاضبة من دعم وتمويل المملكة العربية السعودية لغزو صدام حسين الذي استخدم أسلحة كيماوية من بين أشياء أخرى. ولكن في عهد محمد خاتمي، بذلت إيران جهودًا كبيرة للتقارب مع الدولة السعودية، ووقّع الطرفان اتفاقية أمنية عام ٢٠٠١.

ولكن كان الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق عام ٢٠٠٣ نقطة تحول كبيرة، حيث أدى تغيير النظام إلى نتيجة غير مقصودة أو التي لم يتم تقديرها بشكل صحيح بتمكين الأغلبية الشيعية في بلد كان يقوده في السابق حاكم سني مطلق، مما يعني وجود ميل عراقي نحو إيران كان من شأنه على الفور تدمير ميزان القوى الديني في المنطقة. ومن ثم رأى السعوديون مؤامرات إيرانية في كل مكان. على سبيل المثال، في الربيع العربي بالبحرين، حيث كان الكثير من المتظاهرين من الشيعة (في بلد ذات أغلبية شيعية)، وقد قمعت بمساعدة عسكرية من المملكة العربية السعودية. ولكن قبل ذلك شهد العداء السعودي والأمريكي لخطاب الرئيس أحمدي نجاد خلق الخصومة التي استمرت منذ الربيع العربي حتى الآن.

لم يكن اتفاق ٢٠١٣ بقيادة الولايات المتحدة مع طهران للحد من البرنامج النووي الإيراني في ظل حكومة حسن روحاني المعتدلة، وبوجود أغلبية معتدلة في البرلمان الإيراني منذ أوائل ٢٠١٦ أيضًا كافيًا لاسترضاء السعوديين. فالدولتان تدعمان أطرافًا متنازعة في الحرب السورية، وعلى أية حال، لم تمتلك المملكة العربية السعودية أسلحة نووية بميزان القوى الإقليمي. وإنما كان لديها مظلة نووية أمريكية، مما يمكنا من القول بأن لها الصدارة على الإيرانيين في النهاية. هناك ما يجب قوله، وقد استخف به المعلقون تمامًا، وهو تحديث طهران النسبي لحرياتها الاجتماعية - على الرغم من الرقابة الدينية الصارمة في بعض الأحيان - والتحديث العام للمجتمع الذي لا يعتمد على العمالة الأجنبية كما هو الحال في المملكة العربية السعودية، وبالتالي لا يشمل هذه الأنواع من الضغوط الداخلية التي تأتي من السكان الأجانب. كما يمكن للنساء الإيرانيات قيادة السيارات. ببساطة على الرغم من الطبيعة المتجانسة الظاهرية لآل سعود، قد تكون إيران المجتمع الأكثر استقرارًا وتطورًا، والذي يعد تراثه الثقافي أكبر، وبريقه التاريخي أكثر من نسل قبائل الصحراء وسُرّاق الماشية. قد لا يخفي توازن القوة توازن التصورات والإدراك الذاتي بالكامل. أما بالنسبة للإسرائيليين، فإن ميزان القوة ضخم ويتم ترسيمه وقياسه عسكريًّا.

إسرائيل والتخطيط لهجمات على إيران

لم تحدث حرب مباشرة بين إسرائيل وإيران أبدًا، لكن يوحي موقف إسرائيل ونهجها تجاه إيران بوجود تهديد وجودي يحل محل ذلك الذي جاء من جيرانها المباشرين، حيث يوجد بالإضافة إلى التهديد الداخلي الذي حدده أوريل أبولوف بشكل جيد تهديد آخر خارجي من إمكانية تسليح إيران نوويًّا. ولا يعتبر تهديدًا وجوديًّا بمعنى زوال وطن اليهود، وهو ما يتوقع أن تقوم به أغلبية فلسطينية داخل إسرائيل. لكنه تهديد لشعور إسرائيل بالهيمنة في المنطقة والحرية التي تترتب على ذلك من

التصرف بالطريقة التي تراها مناسبة وعكس قوتها دون عوائق. وبقدر ما أصبح هذا جزءًا من الهوية اليهودية – ليس فقط لليهودي المقاتل، ولكن للدولة اليهودية التي تتطلع إلى القوة – فإن ما لا تريده إسرائيل هو توازن حقيقي في القوة مع إيران النووية.

تضمن خطاب إيران عام ٢٠١٢ تصريحات حول القضاء على إسرائيل، وعن هجوم إيراني بهدف «محوهم من التاريخ الجغرافي للعالم»[١٨]، ولكنها جاءت ردًّا على مجموعة من الرشقات اللفظية المشابهة من إسرائيل التي بدأت في مايو ٢٠٠٦، أولها يتعلق بتدمير المنشآت النووية الإيرانية، ولكن أيضًا، كما قال نائب رئيس الوزراء شمعون بيريز: إن «على الرئيس الإيراني أن يتذكر أن إيران أيضًا يمكن محوها من الخريطة»[١٩]. يبدو أن إسرائيل بين ٢٠٠٦ و٢٠١٢ قد فكرت وخططت بجدية وكانت جاهزة في مرحلة ما لشن ضربة جوية وقائية ضد المنشآت النووية الإيرانية. كما يبدو أن القوات الجوية الأمريكية كانت ستشارك على الأقل في إحدى تلك الهجمات. وفي ٢٠١٠ شكك كبار العسكريين الإسرائيليين علنًا في حكمة تلك الهجمات[٢٠]، ولكن في نوفمبر ٢٠١٢ كرر نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل إمكانية حدوث مثل هذه الهجمات حتى بدون دعم الولايات المتحدة[٢١]. ثم صرح وزير الدفاع الإسرائيلي المتقاعد إيهود باراك في أواخر عام ٢٠١٣ أن إدارة أوباما تعد لخطط مفصلة للهجمات[٢٢].

---

(١٨) Dudi Cohen, "Iran: Strike a Chance to Wipe Israel off Map", *Ynetnews*, https://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4285130,00.html

(١٩) "Peres: Iran Can also Be Wiped off the Map", *The Jerusalem Post*. https://www.jpost.com/Israel/Peres-Iran-can-also-be-wiped-off-the-map

(٢٠) "Barak: Netanyahu wanted to Strike Iran in 2010 and 2011, but Colleagues Blocked Him", *The Times of Israel*, https://www.timesofisrael.com/barak-netanyahu-wanted-to-strike-iran-in-2010-and-2011-but-colleagues-blocked-him/

(٢١) Yolande Knell, "Israeli PM Netanyahu 'Ready' to Order Strike on Iran", *BBC News*, www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-20220566

(٢٢) "Ehud Barak: U.S. Has Contingency Plan for 'Surgical' Strike on Iran", *Haaretz,* https:// www.haaretz.com/barak-u-s-can-surgically-strike-iran-1.5226380

لم تشن الهجمات أبدًا، لكن في ٢٠١٣ وقعت سلسلة من الاغتيالات للعلماء النوويين الإيرانيين. كما أنه حسب علمنا من الإشاعات والتسريبات، يبدو أن جميع الخطط اعتمدت على إمكانية ضرب المنشآت - لكن تمكن الإيرانيون من تفريقها في المناطق الجبلية - وأن الهجوم لن يواجه مقاومة حقيقية فالطائرات الحربية الإسرائيلية أفضل كثيرًا من الطائرات الحربية الإيرانية، وربما تتمكن أيضًا من مراوغة دفاع الصواريخ المضادة للطائرات التي يمدهم بها الاتحاد السوفييتي. لم يبدُ أحد قادرًا على التفكير في رد مختلف لإيران التي أرسلت قواتها الجوية لا لمحاربة الإسرائيليين، بل لقصف القدس وتل أبيب.

وقفة تأمل

هناك كم هائل من المشاكل الدبلوماسية في الشرق الأوسط خاصةً بين إسرائيل وأعدائها المزعومين. ويزيد الحالة تعقيدًا أن التهديدات الخارجية لإسرائيل - التي تتطلب «حركة أمننة عميقة» - تتشابه إلى حدٍّ ما مع تهديد داخلي يتطلب بدوره أمننة غير ممكنة إلى الآن. قد يكون للحاجة إلى تهديد خارجي جذور في حاجة نفسية عميقة - أن الاستعداد يجب أن يكون دائمًا من أجل الرد على قوة خارجية - مستمدة من الخبرة التاريخية، ومتجسدة في إيران المعاصرة التي تحتوي في الوقت ذاته على جميع خصائص الحداثة ومجموعة من الآثار القديمة الشريرة. تتحمل إيران على عاتقها الاستيلاء النازي لزرادشتية نيتشه، ولكن ليس التاريخ والثقافة الكوزموبوليتانية للاستيعاب والتسامح والتعددية الثقافية.

وبهذا تصبح القنبلة نقطة الفصل، حيث كانت نقطة الحسم الإسرائيلية فلا يمتلكها غيرها بالمنطقة. لذا لا يمكن تحدي الهيمنة الإسرائيلية واليهودية، وكان احتمال التحدي، ولكن فقط بقدر ما سيكون هناك ردع وتوازن متبادل مطلبًا بعيدًا للغاية. بالرغم من أن هنري كسنجر قد تصور نظامه العالمي المثالي على هيئة

حفل موسيقي أو عدة حفلات موسيقية إقليمية من شأنها أن تحقق توازنًا، لم يجد الإسرائيليون أي توازن من تاريخ عانوا فيه من حالة عدم توازن راديكالية. ومن المؤكد أن الخطاب الإيراني لم يساعد، كما لم تساعد تصورات الولايات المتحدة عن إيران التي عززت المخاوف الإسرائيلية.

وكمثال على استخدام مدرسة كوبنهاجن، قد لا يكون للوضع أي نظير ولكن ليس فقط فيما صاغه أبولوف. هنا لدينا توازٍ بين صيغة أبولوف والتهديد المحتمل من إيران.

ففي مواجهة مثل هذه التصورات للتهديد وفي مواجهة حركات الأمننة لن نتمكن في الوقت الحالي من إيجاد طريقة للمضي قدمًا من خلال أي قدر من الدبلوماسية أو الموازين الصحيحة في صياغة السياسة الخارجية باستخدام أي من نماذج أليسون أو جميعها. أما الفلسطينيون - ذوو أكثر الأجهزة الدبلوماسية وصياغة السياسة الخارجية بدائية - قليلو الحظ الذين عليهم الاعتماد على عدوهم للحصول على حاجاتهم الأساسية مثل الماء، فليس لهم مستقبل؛ مستقل يمكن تمييزه.

٨

العالم يتحد وينفصل: على أحدهم أن يبقيه متحدًا

بدأت قوى التحالف – إذ شارفت الحرب العالمية الثانية على نهايتها – بوضع خطة لتقسيم العالم. فعقدت سلسلة من الاجتماعات الرئيسية، كانت بعض القمم تضم أقوى الحلفاء فقط مثل يالطا ١٩٤٥ التي اجتمع فيها روزفلت وتشرشل وستالين لآخر مرة، والبعض الآخر كان بمشاركة جميع الدول الحلفاء الـ٤٤. تبرز يالطا كاجتماع قمة واقعي تمامًا، ومتشائم حقًّا، حيث قسم الثلاثة الكبار أوروبا إلى مناطق نفوذ واحتلال. وقد تم اطلاع القادة الثلاثة على هذه المعلومات بشكل شامل، ولكن إلى حد ما كان التقسيم سيتحدد بشكلٍ دائم عن طريق السيطرة على ساحات القتال النهائية. فقد أسفر السباق على برلين واحتلال أكبر مساحة ممكنة من ألمانيا إلى ظهور ما يعرف بألمانيا الغربية والشرقية حتى سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩. بينما سمحت الاجتماعات الأخرى متعددة الأطراف رغم تأثرها الواضح بالقوى العظمى بظهور مخاوف قوة أصغر. فتأسيس ما أصبح البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في مؤتمر بريتون وودز لعام ١٩٤٤ لا يمكن أن يتجنب القوة الاقتصادية للولايات المتحدة التي من دونها ما كان ليصبح هناك نظام مالي متعدد الأطراف في فترة ما بعد الحرب، ولكن ظهرت في مؤتمر سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥ لتأسيس الأمم المتحدة بعض الاعتراضات المثيرة للاهتمام من الدول التي لم تكن بين القوى العظمى مثل أستراليا.

قاد جون بورتون السفير الأسترالي في مؤتمر سان فرانسيسكو – الذي كُتِبَ بعد ذلك عدد كبير من الأعمال الأكاديمية عنه (وعن رغبته) في عالم متعدد الأطراف – المعارضة لإنشاء مجلس الأمن، حيث كان من المقترح له أن يتمتع بسلطات أكبر

مما لديه الآن. كانت هناك حاجة لمجلس أمن في ضوء الأمم المتحدة التي لا تخضع لتوجهات في الغالب - حفل من القوى العظمى القادرة على استدعاء اللحن في أوقات الأزمات (على افتراض أن تلك القوى العظمى يمكن أن تتفق على لحن) - أو على الأقل مجلس يقر من المنتصر في الحروب، ويمكنه أن يحدد من بين أمور أخرى كيفية الحفاظ على المكاسب. سيتم إدراج اهتماماتهم في قمة المنظمة الجديدة. وقد طالب بيرتون بمنح صلاحيات أكبر للجمعية العامة، فلا يمكن أن يقوم التقسيم العالمي الجديد على الهيمنة لدرجة تجعل الدول الناشئة المتوقع لها زيادة سكانية كبيرة تعزف عن الانضمام إليه.

لكن لم يكن المركز السياسي والدبلوماسي أكثر ما يميز الأمم المتحدة الجديدة، وإنما امتازت بوكالاتها المتخصصة. فكانت اليونسكو بطريقة ما محاولة لاسترضاء الطبقات الثقافية التي قدمت المنطق المعياري للحرب ضد الفاشية، ولديهم فرصة الآن للحث على إنهاء الحرب تمامًا بناءً على الافتراض بأن «الحروب تبدأ في عقول البشر»، وبالتالي سيقلل تثقيف هذه العقول من الحروب[٢٣]. وقد أجادت تجنب سياسة القوة ومصالح الدولة التي تحدد مبررات وطبيعة ومدى الحروب من حيث المكاسب والخسائر. اقترحت الوكالات المعنية بالصحة العالمية والتنمية العالمية وتقديم المساعدات للاجئين وممارسات العمل هيكل عالمي يهتم بالتعاون الوظيفي. ولكنها وظيفية موجهة في الأغلب نحو الدول النامية حديثًا، وبقدر ما كانت مساعدة تقنية واقتصادية منظمة من الأعلى إلى الأسفل، كانت في المقام الأول تعبيرًا عن الهيمنة.

(٢٣) Richard Hoggart, *An Idea and Its Servants: UNESCO from Within*, Introduction by John R. Bolton (Piscataway, NJ: Transaction, 2011).

كما اقترح الجدل الدائر حول مجلس الأمن، وانعكاسه الحقيقي على عالم محسوم أمره في يالطا ربما أكثر من سان فرانسيسكو، والجدل حول معنى الوكالات الوظيفية أن لم يكن هناك من يتوقع في البداية بأن منصب الأمين العام للأمم المتحدة سيصبح منصبًا حاسمًا في العلاقات الدولية.

الأمين العام والصراعات العربية الإسرائيلية

تعتبر شخصية الأمين العام ودوافعه – وخاصةً مع عدم وجود وصف دقيق لمهام المنصب – أمرًا بالغ الأهمية. لكن هذه الصفات تعمل فقط إذا كان لشاغل المنصب حكم نافذ ويمكنه تأمين الحلفاء. كما رأينا كيف تمكن شريداث رامبال؛ الأمين العام للكومنولث – الذي نافس بيريز دي كوبيار لاحقًا على المنصب بالأمم المتحدة – من لعب دورًا كبيرًا في التأثير على استقلال زيمبابوي. لكن يعتبر المنصبين في الكومنولث والأمم المتحدة من مناصب كبار الموظفين المدنيين الدوليين على مستوى السفراء رفيعي المستوى. وبينما يعتبر الأمين العام بالطبع حرًّا في ممارسة «المساعي الحميدة» من أجل الإقناع والتفاوض ليس من شأنه القيام بوظائف تنفيذية أي ذاتية التصميم والتنفيذ. وقد تطور دور المنصب وفقًا لكيفية قبول أشكال جديدة من «الممارسات الجيدة» على أنها «عادية»، أو وفقًا لرد فعل القوى العظمى في مجلس الأمن تجاهها. ارتبط توتر دائم بالعلاقة بين الأمين العام للأمم المتحدة ومجلس الأمن. وقد كان كوفي عنان رائدًا في تقديم أشكال جديدة من «الممارسات الجيدة» إلى أن تصبح طبيعية، كما تمكن من تعيين نائبه الخاص، مما مكّنه ليس فقط من بناء جهاز دعم داخلي، بل والأهم من ذلك جعل الأمانة العامة العليا قوة في حد ذاتها، إلى جانب مجلس الأمن والجمعية العامة. ولكن يبقى داج همرشولد هو الأمين العام الأنشط والأكثر ديناميكية، وقد دفع حياته ثمنًا لذلك.

كان هامرشولد هو الثاني من بين ثمانية شغلوا منصب الأمين العام حتى عام ٢٠١٦. وقد يكون من المفيد دراسة كل واحد منهم على خلفية واحدة من أكثر المناطق إشكاليةً في العالم، مثل الشرق الأوسط وخاصةً الدولة الإسرائيلية وحروبها في المنطقة.

فقد كان تريجفي لي (النرويج) أمينًا عامًّا من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٢. تزامنت فترة ولايته مع وصاية الأمم المتحدة على فلسطين التي كانت من المفترض أن تتولى عملية استقلال إسرائيلي بعد الانتداب البريطاني. واشتكى مسئولو الأمم المتحدة من أن البريطانيين لم يتعاونوا على الإطلاق، ومن الواضح أنه على الرغم من أن شخصيات الأمم المتحدة عملت بجد في ظل التدهور السريع للوضع، حيث أصبح ما كان مضطربًا بالفعل خطيرًا ومثيرًا. أعلنت إسرائيل الاستقلال عام ١٩٤٨، واندلعت الحرب مع جيرانها العرب. وفازت إسرائيل بانتصار عسكري شامل أدى إلى توسعة هائلة لحدودها التي أقرتها الأمم المتحدة. وأُطلق على الحدود الجديدة اسم «الخطوط الخضراء» بمعنى خطوط الهدنة المتفق عليها في نهاية الحرب.

إن لم يكن تريجفي لي قادرًا على منع الحرب أو التوسع الإسرائيلي أحادي الجانب، فقد لعب داج همرشولد (السويد ١٩٥٣-١٩٦١) دورًا حاسمًا في الضغط الدبلوماسي ضد الغزو الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي المشترك على قناة السويس عام ١٩٥٦. كان نشاطه الحاسم واضحًا رغم أنه قد طلب بالطبع دعمًا قويًّا من الولايات المتحدة لموقفه من خلال الأمم المتحدة. ولكنه لم يطلب دعم الولايات المتحدة - أو أي دعم من مجلس الأمن - لإدراج أول قوة لحفظ السلام تابعة للأمم المتحدة في سيناء للوقوف حائلًا بين الخطوط المصرية والإسرائيلية، حيث فعل ذلك من خلال الجمعية العامة، ولم يتمكن أي أمين عام آخر من تجاوز مجلس الأمن بشأن مسائل حفظ السلام. كما حصل نفسه على تفويض من مجلس الأمن لقوة حفظ السلام التي أرسلت إلى الكونغو عام ١٩٦٠، حيث شب العنف إثر استقلال المستعمرة البلجيكية السابقة. ولكن عمله في الكونغو والنزاع بين القوى العظمى الذي خاضته الأحزاب والقوات

الإفريقية بالوكالة جلب عليه انتقادات شديدة. عندما انفجرت طائرته فوق مدينة ندولا شمال زامبيا إلى الجنوب مباشرةً من الحدود الكونغولية، أثيرت الشكوك في أنها كانت عملية اغتيال، لكن لم يتمكن أحد أن يثبت بشكل قاطع ما إذا كانت الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتي وراء عملية القتل. ربما يمثل الزامبيون عالمًا ناشئًا أحبه. فلايزال الضريح الذي شيدته له زامبيا قائمًا، حيث انفجرت الطائرة وحوله أشجار الصنوبر السويدي على مدى ميل كامل في جميع الاتجاهات.

أما خليفته يو ثانت (بورما ١٩٦١-١٩٧١) فقد تزامنت فترة ولايته مع حرب ١٩٦٧ التي هزمت فيها القوات العربية مرة أخرى ودمرت الآلة العسكرية المصرية بشكل قاطع. وهناك الكثير من الجدل حول دور ثانت في الأيام السابقة للحرب. وقد طلب الرئيس المصري جمال عبد الناصر سحب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من سيناء. وإلى جانب حشده القوة العسكرية على حدوده، فقد تسبب ذلك في اعتقاد الإسرائيليين بأن هجومًا مصريًّا وشيك، مما أدى إلى ضربة إسرائيلية وقائية مدمرة. وتعتبر جميع التساؤلات حول كون يو ثانت قادرًا على التفاوض بشكل أفضل مع عبد الناصر أو أنه أساء فهمه، أو أنه ربما كان بإمكانه سحب قوة الأمم المتحدة ببطء شديد وبطريقة غير مجدية. شهدت حرب عام ١٩٦٧ تمديد حدود إسرائيل مرة أخرى وخاصةً في سوريا. واحتلت سيناء إلى قناة السويس والضفة الغربية إلى نهر الأردن. كما شهد العام الأخير من ولاية ثانت صراعًا عنيفًا بين القوات الأردنية والفلسطينية فيما سُمي حرب أيلول الأسود عندما شعر الفلسطينيون بأنهم تعرضوا للخيانة من قِبل الأردنيين، وتم طرد منظمة التحرير الفلسطينية إلى مقر جديد في المنفى ببيروت. لم يتمكن يو ثانت طوال فترة أمانته عندما كانت المخاطر ضخمة في الشرق الأوسط من تحقيق أي تدخلٍ حاسم.

تزامنت الاضطرابات والإنجازات الدبلوماسية في المنطقة مع فترة أمانة كورت فالدهايم (النمسا ١٩٧٢-١٩٨١)، ولكنه لم يشارك بشكل رئيسي في أيٍّ منها. وقد أعقب الهجوم المصري المفاجئ لاستعادة سيناء عام ١٩٧٣ سلسلة من المفاوضات المكثفة وكان هنري كسنجر على رأس مشاركيها. لم يلعب أمين عام الأمم المتحدة أي دور رئيسي في الزيارة التاريخية والمفاجئة التي قام بها الرئيس السادات إلى القدس عام ١٩٧٧ واجتماع الرئيس الأمريكي جيمي كارتر مع السادات وبيجن في كامب ديفيد عام ١٩٧٨. أما الغزو الإسرائيلي على لبنان عام ١٩٧٨، والثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بتداعياتها على الولايات المتحدة، والهجوم العراقي على إيران عام ١٩٨٠ بدعم من الولايات المتحدة، فقد تجاوزت جميع الجهود التي بذلها. لم يكن فالدهايم خاملًا ولكنه ببساطة لم يلعب هو ومنصبه دورًا محوريًّا في هذه الأحداث العالمية.

كان بيريز دي كوييار (بيرو ١٩٨٢-١٩٩١) أمينًا عامًّا أثناء الغزو الإسرائيلي الثاني على لبنان (١٩٨٢) التي سبقها فترة من التجاهل المتكرر لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة وعدم فاعليتها، حيث خرقت كلٌّ من القوات الإسرائيلية والفلسطينية اتفاق وقف إطلاق النار. كما انطلقت الانتفاضة الثانية عام ١٩٨٧ في فترة ولايته التي انتهت باندلاع حرب الخليج الأولى في ١٩٩١. شاركت الأمم المتحدة كقوة دبلوماسية مكثفة لتلك الحرب، لكن التحالف العسكري الضخم الذي استعاد الكويت كان بقيادة الولايات المتحدة. كما تمكنت الدبلوماسية الأمريكية من إقناع سوريا أيضًا بأن تكون جزءًا من الجهد العسكري لاستعادة الكويت كدولة وستفالية.

كان بطرس بطرس غالي (مصر ١٩٩٢-١٩٩٦، وهو الأمين العام الوحيد - باستثناء تريجفي لي وداج همرشولد - الذي لم يظل في المنصب فترتين بسبب الصعوبات التي كان يواجهها مع الولايات المتحدة) مسئولًا عن الأمم المتحدة أثناء اتفاقيات أوسلو لعامي ١٩٩٣ و١٩٩٥، لكنه لم يلعب دورًا محوريًّا فيها بالرغم من استناد الاتفاقيات

إلى قرارات مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة. وكذلك لم يكن كوفي عنان (غانا ١٩٩٧-٢٠٠٦) محوريًّا في محادثات كامب ديفيد التي توسط فيها الرئيس كلينتون بين ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك كمحاولة لإنقاذ اتفاقات أوسلو. واندلعت الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ ردًّا على فشل كامب ديفيد. تزامن عهد بان كي مون (كوريا ٢٠٠٦-٢٠١٦) مع حرب لبنان عام ٢٠٠٦، وجميع حروب غزة الثلاثة ٢٠٠٨-٢٠٠٩ و٢٠١٢ و٢٠١٤، دون أن يتمكن من التأثير على مسار الأحداث في أيٍّ منها.

مجلس الأمن هو المركز

لا شيء من هذا بالضرورة يقلل من جهود أي ممن تعاقبوا على منصب الأمين العام على الرغم من أن بعضهم كانوا أفضل من غيرهم ببعض جهودهم. ولكن برغم الجهود الناجحة الأبرز لداج همرشود وكوفي عنان - وهما على الأرجح أفضل من شغل هذا المنصب - لزيادة إمكانات ونطاق حرية منصبهما، لم يسعهما في النهاية العمل كوكيل حر أو تنفيذي، وكلاهما كان مدينًا لمجلس الأمن. ولعل أكثر ما يطمح إليه أي أمين عام هو تشكيل منصبه واستدامته بحيث يكون قادرًا على المساعدة بشكلٍ دقيق في صياغة قرارات مجلس الأمن، ويساعد على دفع تنفيذها.

وعلى الرغم من عدم قدرة الأمم المتحدة على حل جميع مشاكل العالم، أصدر مجلس الأمن عددًا كبيرًا من القرارات التي تعالجها. فقد تمت تسوية القضية الفلسطينية الإسرائيلية والمبادئ التي ينبغي أن تشكل أية نتيجة متفاوض عليها - وتبعتها بعملية أوسلو - مسبقًا في القرار ٢٤٢. وبينما تم إقراره في مجلس الأمن بالإجماع، كان من النادر قيام عضو في مجلس الأمن مثل الولايات المتحدة بضغط متواصل على إسرائيل لمراعاة مبادئه. وبالتالي فإن المشاكل المشتقة ليست بسبب فشل مجلس الأمن في العمل كجهاز متعدد الأطراف، بل بسبب الدبلوماسية الثنائية والمصالح السياسية التي تحدد

أو تقيد أعضاءه في الاتفاقات متعددة الأطراف. فتدوي الوعود الكاذبة بشأن القرار دون الإصرار على جعله حجر الزاوية الإلزامي للتوصل إلى «حل» في منطقة الشرق الأوسط.

وتكمن المشكلة الأخرى لقرارات مجلس الأمن في صياغتها. فقد كان القرار ١٩٧٣ بشأن ليبيا غير دقيق بما يكفي للسماح لقوات الناتو باستخدام القوة الحرة في الهجمات الصاروخية والجوية على نظام القذافي. ثارت الصين وروسيا - بصفتهما من أعضاء مجلس الأمن - بسبب الحرية التي منحها ذلك القرار للولايات المتحدة وحلفائها، ولكن ربما كان ينبغي عليهما استدعاء ومعاقبة وفصل سفرائهما في الأمم المتحدة حيث سمحوا بتلك الصياغة غير الدقيقة للقرار وما ترتب عليها.

ماذا تعني المسألة الملحة المتعلقة بتوسيع العضوية الدائمة بمجلس الأمن إذا واجه الأعضاء الخمسة الدائمون الذين يتمتعون بحق النقض (الفيتو) صعوبة في (أ) مراقبة العالم بطريقة متفق عليها و(ب) مراقبة بعضهم بعضًا - كما حدث في ليبيا. فبرغم كل شيء، لا يمكن اعتبار الاجتماعات السرية للقوى الخمسة المنتصرة في الحرب العالمية الثانية حتى وإن كان معهم ممثل عن الصين ممثلًا عن جميع قوى العالم العظمى، وبالتأكيد ليس تمثيلًا عن القوى الناشئة. هل يجب أن يكون هناك مقعد لدولة شرق أوسطية؟ وإن وقع الاختيار على المملكة العربية السعودية، فكيف سيتم التعامل مع «المعايير المزدوجة» في كونها دولة وستفالية، وفي الوقت ذاته تشجع أعمال التمرد الإسلامية في الدول الوستفالية؟ وإن كانت المملكة العربية السعودية، فماذا سيعني هذا فيما يتعلق بالانقسام السني الشيعي في أقصى صوره؟ وماذا يعني بالنسبة لمشاركة إيران في الشئون الدولية؟ وهل يجب أن يكون لإفريقيا عضو دائم؟ من ينبغي أن يكون؟ حتى وقتٍ قريبٍ، كانت جنوب إفريقيا الدولة الأقوى اقتصاديًّا، لكن في عامٍ واحد تراجعت بعد نيجيريا ومصر. لكن هذا التراجع مبني على الحسابات، فببساطة قد يؤدي تغيير المعادلة إلى تغيير النتيجة. ولكن بكل هذا القدر من

انعدام الدقة كيف سيتم الاختيار؟ وإذا تم توسيع العضوية الدائمة، فهل سيتمتع جميع الأعضاء الدائمين الجدد بحق النقض؟ ستكون «النخبة» غير عملية وعرضة للشلل في ذلك الوقت. ولكن هل يمكن أن يكون هناك اجتماعات مميزة يتمتع بعض أعضائها الدائمين بسلطات أكبر من أعضاء دائمين آخرين؟ سيتعين على الأمين العام الجديد للأمم المتحدة أن يطرح سبلًا ممكنة للتقدم بشأن هذه المسألة إلى مجلس الأمن في أول فرصة.

الوكالات المتخصصة والمفوضين الساميين

تعتبر جهود الوكالات المتخصصة من أعمق قيم الأمم المتحدة في فترة ما بعد الحرب حيث تحقق مساعي منظمة الصحة العالمية (WHO)، ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة (UNICEF)، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)، والمفوضية السامية للأمم المتحدة لشئون اللاجئين الكثير من المنفعة، مما يجعل وجودها ضرورة. وعليه تتطلب هذه الوكالات الأربعة قدرًا كبيرًا من التوسع والدعم.

والأكثر إثارة للجدل أن جهود مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان تعد قيمة ليس فقط بسبب الدفاع عن حقوق الإنسان في حد ذاتها، وإنما أيضًا بسبب استعداد المفوض السامي لانتقاد أعضاء مجلس الأمن. وتعتبر جهة رقابة رئيسية داخل منظومة الأمم المتحدة وتضم أقوى أعضائها. وتستمد أحكام المفوض السامي من الجمعية العامة، وهذا ما يبرر الموقف الذي اتخذه جون بورتون في مؤتمر سان فرانسيسكو التأسيسي للأمم المتحدة.

التقدم البطيء للقوى «العادية» الجديدة

وقد منح داج همرشولد بموجب ما يُطلق عليه «صيغة بكين» - وهو مصطلح مشتق من عمله في تأمين إطلاق سراح ١٧ طيارًا أمريكيًّا احتجزتهم الصين كعضو غير تابع للأمم المتحدة - للأمين العام مطلق الحرية في تطبيق تفويض السلام والأمن رغم عدم قدرته أن يوليه بنفسه لنفسه، حيث ينبغي أن يأتي بشكل عام من مجلس الأمن. لكنه سمح بالحرية التشغيلية والإبداع. كما حصل كوفي عنان على الحق في تعيين نائبه الخاص - كما ذكرنا - مما يمنح الأمين العام درجة من الدعم المضمون في إبداعه وحريته التشغيلية. إن الأمين العام مقيَّد بسلوك السياسة العالمية، لا سيما أن تطورها يتحدد وفقًا لمصالح القوة العظمى وحقوق الفيتو. ولكن ربما أعظم رصيد للأمين العام هو وجود حيز كافٍ للمناورة، حيث يُمكِن للأمين العام القادم - الذي سيتم اختياره في النصف الثاني من ٢٠١٦ بترشيح من مجلس الأمن ليتم التصويت عليه في الجمعية العامة - أن يكون إما مرشحًا قادرًا على الإبداع ومستعدًّا له، أو - كما حدث كثيرًا في الماضي - مرشحًا يمكن الوثوق به لإصدار الأصوات الصحيحة، ولكن في الواقع لا يعترض طريق مجلس الأمن.

وقفة تأمل

قد يُعتقد أن الوكالات المتخصصة يمكن أن تمهد الطريق إلى اتحاد سياسي أوثق في الأمم المتحدة مثل المنظمات السابقة للجماعة الأوروبية والاتحاد الأوروبي المعنية بالتعاون الوظيفي والتقني، ولكن هذا غير ممكن لعدة أسباب؛ أولًا: الوكالات ثمرة متخصصة محدودة لترتيبات الأمم المتحدة الدبلوماسية والسياسية، وقد يتم اقتطاع بعض المساحة للمناورة - ربما مساحة كبيرة من وقت لآخر - ولكن فقط ضمن هذه الحدود.

ثانيًا: لم تأت الوكالات أولًا، وبالرغم من أن البعض منها مرحل من الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية، فقد كانت تابعة لعصبة الأمم، ومن ثم قامت بدورها في فترة ما بعد الحرب كتابع للأمم المتحدة. لا يمكنها تطوير اتحاد سياسي جديد من الفحم والصلب كما حدث في أوروبا. فقدرها مرتبط بالجهة الأم، وستبقى طالما بقيت وتنتهي بنهايتها أو تتبع منظمة أخرى لاحقة. ثالثًا: يُعنى التعاون الوظيفي بشكل كبير بالإجراءات والبرامج التي تساعد العالم المحروم أو المتضرر من الكوارث. ولا يعني ذلك أن لليونيسيف برامج ضخمة لمساعدة الأطفال المشردين في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة، وإنما تقدم الولايات المتحدة والمملكة المتحدة مساعدات مالية لليونيسيف من أجل مساعدة الآخرين. باختصار، لا يوجد تعاون وظيفي بين الدول الغنية والفقيرة، وإنما تتواجد الوكالات في «وظيفية» هرمية، تمامًا كما يتواجد مجلس الأمن في علاقة هرمية مع الجمعية العامة.

وعليه، يعني تعميم الأمم المتحدة من خلال عدد من «سفراء النوايا الحسنة» الشرفيين لقضايا متخصصة، مثل أنجلينا جولي وديفيد بيكهام وشاكيرا وجيت لي، أن الأمم المتحدة قد دخلت في وعي عام لا يمكن استئصاله بسهولة أو تقليل وظائفه وأسبابه. إذا تكلمت أنجلينا جولي عن اللاجئين فحتى أقسى الحكومات ستلتفت لزياراتها وسيكون هناك صدى لمشاعرها حتى إن لم تتبن برنامجها. فعندما يضع نادي برشلونة لكرة القدم اسم اليونيسف شعارًا على قمصان الفريق الأول، وقمصان المشجعين المماثلة - سواء أصلية أو لا - ستصبح تلك الوكالة المتخصصة وعملها عنصرًا دوليًّا معروفًا للعامة. أصبحت أفقية شعوبية غريبة ترافق التسلسل الهرمي السياسي للأمم المتحدة، وبذلك ندخل لحظة غريبة في تاريخ المنظمة. قد يكون للأمين العام الجديد دوائر مناصرة لدعمه أكثر ممن سبقوه.

٩

المستثنى يدافع: دبلوماسية الصين الاقتصادية متعددة الأطراف

دخلت الصين العالم كدولة شيوعية عام ١٩٤٩ بعد قرن من الاحتلال الإمبريالي والاستعمار الياباني والصراع المدني مع زعماء الحرب والصراع الدموي بين القوات القومية لشيانج كاي شيك والجيش الأحمر لماو. كانت الصين التي فاز بها ماو في حالة خراب. ليس هذا فحسب، وإنما أيضًا نبذها على الفور الكثير من دول العالم. اعترفت الولايات المتحدة ببقايا النظام القومي الذي هرب إلى تايوان كحكومة الصين، ورفضت الاعتراف الدبلوماسي ببكين ومنحها مقعدًا في الأمم المتحدة، مما يعني أيضًا الاستبعاد من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وبالتالي مكانها في «الطاولة العليا» للدبلوماسية العالمية. وبقدر ما يضم مجلس الأمن المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، يجدر القول بأن قوات تشيانج قاتلت ضد اليابانيين أكثر من قوات ماو، وهي حقيقة لكن لا تعني أن القوى الشيوعية لم تقاتل اليابانيين على الإطلاق. فقد كانت هناك معارك دامية للغاية. ولكن لم يكن مجلس الأمن كممثل عن القوى العالمية مكتملًا بدون بكين – رغم أن الصين التي فاز بها ماو لم تكن قوية على الإطلاق في ١٩٤٩. وبالرغم من ذلك أصبح الأمر أول تسييس حقيقي في هيكل الأمم المتحدة – حيث حرمت دولة شاسعة المساحة من مقعدها بسبب ظهور سياسات الحرب الباردة. ومشكلة الصين كانت استبعادها من الكثير من الأمور الأخرى.

كانت نظرية «العوالم الثلاثة» الصينية – التي سبق أن تناولناها في هذا الكتاب – جزءًا من رد فعلٍ في منتصف السبعينيات إزاء سياسية الاستبعاد. واقترحت تشكيل تحالفات وتكتلات سياسية خاصة بالصين في مواجهة الاستبعاد أو التهميش من

الآخرين. وبقيت شكوك الصين بشأن عالم القوى العظمى شديدة حتى بعد التقارب مع الولايات المتحدة في عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ وتسلمها مقعد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. ورغم ذلك، استغرق الأمر من الصينيين وقتًا أكثر لتندرج ضمن المؤسسات الاقتصادية العالمية في العالم، حيث عارضت الولايات المتحدة على وجه الخصوص السماح بذلك. وحتى بعد إدراجها في النهاية تدخلت إستراتيجية السياسة الخارجية الصينية المنعدمة تقريبًا بخطط لتشكيل هياكل اقتصادية عالمية بديلة خاصة بها. وقد كانت مستعدة للقيام بذلك بتكلفة كبيرة أملًا في الحصول على عوائد كبيرة طويلة الأجل ليس فقط اقتصاديًّا، وإنما أيضًا من النفوذ السياسي الذي ستجلبه الهيمنة الاقتصادية.

استثناء البنية

شملت البنية ما بعد الحرب العالمية الثانية مؤسسات للتعاون (مثل الأمم المتحدة)، وتعاون دول الجوار (مثل ما أصبح الاتحاد الأوروبي)، ولما سمي «المواءمة» (مثل منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD). وكان هذا بصرف النظر عن المؤسسات المالية (مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي) التي تكونت من أجل الوصول إلى أشكال شديدة التعقيد والفعالية من التنظيم الاقتصادي لمرافقة تسهيل تدفق رأس المال. هنا، أصبح تداول رأس المال أهم من مجرد تراكمه. وطالما يسيطر الغرب على هذا التداول، يظل كل شيء على ما يرام مع البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وسوف نعود قريبًا إلى ذلك. كانت ممارسة «المواءمة» في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية من خلال التشاور والبحث لا تمكن أيًّا من الدول الرأسمالية أن تتطور بعيدًا عن بعضها البعض، وتمكن كل منها من البقاء على اتصال مالي مع الآخرين في جميع الأوقات. وقد أتاحت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية انتصار الرأسمالية العالمية بعد الحرب وحالت دون انهيارها.

كانت مجموعة السبعة (G7) نظيرتها السياسية التي تضم أقوى الدول اقتصاديًّا نوعًا ما مثل مجلس الأمن السياسي لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. كما أنشأ العالم النامي الذي شكل حركة عدم الانحياز نظيره الخاص لمجموعة السبعة مجموعة الـ٧٧ التي نظمت حملة من أجل نظام اقتصادي عالمي أكثر عدالة. كان السعي في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات وراء ما سمي بـ«النظام الاقتصادي الدولي الجديد» - الذي ساعده وحرض عليه مجموعة من الخبراء رفيعي المستوى مثل لجنة براندت[٢٤] - أحد البنود الرئيسية في جدول أعمال مجموعة الـ٧٧. لكن الصين لم تكن مدرجة في البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي أو منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية أو مجموعة السبعة، ولم يتم دعوتها حتى عام ١٩٨١ للانضمام إلى مجموعة الـ٧٧ التي تأسست عام ١٩٦٤. ربما كانت الصين تريد أن تقود العالم النامي، ولكن لم يوثق بها إلى حدٍّ ما.

كانت مجموعة الـ٧٧ استجابة العالم النامي للطبيعة الحصرية لمجموعة الـ٦ (G6) - كما كانت في بدايتها - التي تأسست عام ١٩٧٥. ضمت مجموعة (G6) فرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان والولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وأصبحت (G7) بعد انضمام كندا عام ١٩٧٦. كانت هذه أغنى الاقتصادات الرأسمالية في العالم وكانت جزءًا من بنية الحرب الباردة التي بدت قديمة بانتهاء الحرب بعد سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩. ورغم ذلك، لم يتم ضم روسيا إلى المجموعة حتى عام ١٩٩٧ لتعرف باسم مجموعة الثمانية (G8)، بالرغم من أن مجموعة السبعة قد اجتمعت بدون روسيا منذ ضمها لشبه جزيرة القرم عام ٢٠١٤. وقد عبر هذا عن استمرار استخدام المجموعة كأداة سياسية لا اقتصادية بحتة. ولم يتم تقديم أي دعوة إلى الصين.

(٢٤) Independent Commission on International Development Issues, *North-South: A Programme for Survival*, *Pan World Affairs* (London: Macmillan, 1980).

لم تحصل الصين – حتى عام ١٩٩٩ مع إنشاء مجموعة العشرين – على مقعد حول طاولة عليا موسعة. وضمت مجموعة العشرين الأرجنتين وأستراليا والبرازيل وكندا والصين وفرنسا وألمانيا والهند وإندونيسيا وإيطاليا واليابان والمكسيك وروسيا والمملكة العربية السعودية وجنوب إفريقيا وكوريا الجنوبية وتركيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. وقد أقر تأسيسها على أن رأس المال العالمي وقطاعاته – الإنتاج والتجارة – لم يعد في يد القوى العظمى بعد الحرب. كانت مجموعة العشرين تتحكم بـ٨٥٪ من الناتج الإجمالي العالمي و٨٠٪ من التجارة العالمية، وتحتوي على ثلثي سكان العالم، مما يعني أن الممارسات الاستبعادية للسياسة العالمية في أواخر عام ١٩٩٩ قد حرمت الصين من العضوية الكاملة في قمم النظام الاقتصادي العالمي. كان مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة جيدًا، لكن تواصل الصين الاقتصادي كان بحاجة إلى الأصدقاء والشركاء التي عثرت عليهم في مجموعة العشرين.

لقد كان إدراج الصين في الأجهزة المالية والاقتصادية العالمية بطيئًا دائمًا. تأسست منظمة التجارة العالمية (WTO) عام ١٩٩٥، ولكن لم تحصل الصين على عضويتها حتى عام ٢٠٠١. وتأسست مجموعة البنك الدولي عام ١٩٤٤، لكن الصين لم تحصل على العضوية إلا عام ١٩٨٠. ومع ذلك، فإن القضية الحقيقية التي تهدد العضوية الصينية في البنك الدولي هي قوة التصويت. لم يكن حتى ٢٠١٠ حينما ارتفع صوت الصين من ٢,٧٧٪ إلى ٤,٤٢٪، اعتمادًا على رأس المال المتوفر للمجموعة. وينسب أقوى تصويت في البنك الدولي للولايات المتحدة الأمريكية بنسبة ١٥,٨٥٪. وتأتي اليابان في المركز الثاني بـ٦,٨٤٪، مما يترك الصين في المركز الثالث، متقدمة على كل القوى الأوروبية وروسيا والهند والمملكة العربية السعودية. لكن لا تزال الفجوة بين ١٥,٨٥٪ و٤,٤٢٪ كبيرة، مما يجعل الولايات المتحدة اللاعب المسيطر في البنك الدولي وتحول دون السماح للصينيين بزيادة إضافية في اكتتاب رأس المال وقوة التصويت. كما تردد الكونجرس الأمريكي في التصديق على اتفاقية ٢٠١٠ بشأن زيادة القوة الصينية في صندوق النقد

الدولي. مما أدى إلى أن «بن برنانكي» - رئيس الاحتياطي الفيدرالي السابق - قد ألقى باللوم على الكونغرس في ٢ يونيو ٢٠١٥ بسبب المبادرات المصرفية الصينية التي سنتناولها لاحقًا[٢٥].

وشهد عام ٢٠٠٩ أيضًا الاتفاق على أن تحل مجموعة العشرين محل مجموعة الثمانية كالقمة الاقتصادية الرئيسية لأغنى دول العالم. وبطريقة ما لم تسبب القيود على قوة الصين في البنك الدولي إلا زيادة إصرار الصين على استخدام مجموعة العشرين كنقطة انطلاق ونوع من الأدوات الموحدة لخططها الشخصية تجاه القوة الاقتصادية العالمية.

يمكن أن نرى في ضوء هذا صعود الاهتمام الصيني في تأسيس بنوك أخرى، وشيء شبيه بـ«مجلس الأمن» داخل مجموعة العشرين، وهو ما يستثني هذه المرة القوى الغربية ردًّا على استبعادها من الحرب الباردة، وأعني بذلك أن اتحاد البريكس (BRICS) في وضع جيد لتولي دور قيادي في مجموعة العشرين. من المحتمل أن تتجمع جميع السياسات والإستراتيجيات المعنية في رؤية عالمية واضحة في قمة مجموعة العشرين لعام ٢٠١٦ في مدينة هانغتشو الصينية الساحلية الجميلة.

وقد استغرق الأمر ثمانية أعوام حتى تحصل الصين على دور لاستضافة مجموعة العشرين. فمنذ عام ٢٠٠٨ عُقد الحدث السنوي (على الرغم من وجود قمتين لمجموعة العشرين في عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠) في واشنطن العاصمة، ولندن، وبيترسبورغ، وتورنتو، وسيول، وكان، ولوس كابوس (المكسيك)، وسانت بطرسبرغ، وبريزبان. كما استضافتها أنطاليا (تركيا) عام ٢٠١٥.

(٢٥) David Pilling and Josh Noble, "US Congress Pushed China towards AIIB: Bernanke", *CNBC*, www.cnbc.com/2015/06/03/us-congress-pushed-china-towards-aiib-bernanke.html

عن البنوك والطرق والأحزمة والممرات الكبرى

هناك بنية عالمية بديلة، ربما متنافسة. وهذا من شأنه أن يكرر ويزيد جميع ما مارسته الصين لسنوات عديدة، مثل ممرات النقل الخاصة بالسكك الحديدية والطرق، ولكنها تتضمن الآن البنية التحتية من أجل خدمة المجتمع. وسيشمل ذلك بنوكًا جديدة متعددة الأطراف في مناطق رئيسية، ولكن التصويت بها لا يعتمد على قوة الاكتتاب الرأسمالي وإنما ببساطة لكل عضو صوت واحد، دون أي حق نقض للصين حتى إن كانت هي الممول الرئيسي. سوف يكفل هذا المشروع دورًا شاملًا لمصرف البريكس (BRICS) الجديد، ومن المحتمل أن يكون أول ما يوفر برنامجًا رئيسيًّا للقروض في نفس وقت مجموعة العشرين أو في وقت قريب منه. كما سيشهد – بالإضافة إلى ممرات النقل الأرضية – ممرات بحرية، وهنا على الأرجح سيكون هناك دور للبحرية الصينية المعاد بناؤها. وبهذا، ستحصل الجغرافيا الاقتصادية العالمية على سياسة جغرافية تشهد عودة التنافس العالمي للقوى العظمى – ولكن بدون روسيا في هذه المرحلة – حتى وإن استخدمت أكثر اللغات ودية وأكثر الدبلوماسيات احتياطًا.

تعتبر منطقة آسيا والمحيط الهادئ أولى مناطق التنافس المباشر حيث تطلق الولايات المتحدة الشراكة العابرة للمحيط الهادئ (TPP)، وإن كان هناك بعض الهواجس المحلية في الدول الأعضاء حول الأمن الوظيفي في منطقة التجارة الحرة. والصين ليست مدرجة في الشراكة العابرة للمحيط الهادئ، ولكنها حصلت على اتفاق عام ٢٠١٤ من دول إقليمية لإقامة منطقة للتجارة الحرة في منطقة آسيا والمحيط الهادئ، مما يعتبر نتيجة طموحة وثمينة لمحادثات جولة الدوحة السابقة. وسيتطلب ذلك بضع سنوات من التخطيط والإعداد الإستراتيجي، لكن التحدي المباشر للشراكة العابرة للمحيط الهادئ سيكون البنك الآسيوي الجديد للاستثمار في البنية التحتية (AIIB) الذي ورغم عدم تعلقه المباشر بالتجارة سيؤثر بشكل كبير على تدفقات رأس المال في

المنطقة. تختلف الأرقام، ولكن من المقرر أن يكون رأس المال على الأقل ٥٠ مليار دولار، حيث تقدم الصين نصف هذا الرقم إن لم يكن أكثر. وفي البداية قالت أستراليا بتحريض من الولايات المتحدة أنها لن تنضم للبنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية، ولكن غيرت رأيها بعد ذلك. كما ترغب المملكة المتحدة التي لا تنتمي إلى منطقة آسيا والمحيط الهادئ في الانضمام للبنك الجديد. تدرك القوى الغربية التأثير الذي سيحققه البنك في التنمية الاقتصادية والتدفقات المالية في المنطقة. وفيما يلي سوف ننظر في الآثار المترتبة على اسم البنك، خاصةً ماهية المقصود بـ«البنية التحتية». في الوقت الحالي، إن كان البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية (AIIB) منافسًا للخطط الأمريكية في المنطقة، فإن الصين تطرح أيضًا تحديًا للمصالح الروسية في منطقة طريق الحرير.

ومن هنا تنشأ المفردات المثيرة للاهتمام في مشروع «طريق واحد حزام واحد»، حيث إن الطريق البري أيضًا سيكون ممرًّا للبنية التحتية بأنظمة ومرافق الاتصالات والطاقة كجزء من الإمدادات التي تتعدى مجرد النقل. كما يقابله «طريق الحرير» البحري بحيث تكون روابط الصين مع البلدان الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربي شاملة، مما سيؤدي لتطور تلك المدن ذاتها بشكل كبير. وتتم رسملة هذا المشروع «طريق واحد حزام واحد» بمبلغ يقدر بحوالي ٥٠ مليار دولار، يأتي نصفه من الصين إن لم يكن أكثر.

وكذلك سيكون الطريق الجنوبي لمسافة ٣٠٠٠ كم عبر باكستان امتدادًا لمشروع طريق الحرير، وسوف يربط الصين بالمحيط الهندي بشريان نقل مباشر. كما سيكون به بنية تحتية للاتصالات والطاقة، والأهم من ذلك بالنسبة لباكستان أنه سيتيح الفرصة لأول مرة للحكومة الباكستانية أن تتحكم في المناطق الشمالية المضطربة. وعند حدوث هجوم، سيسهل الوصول إلى هذه الأراضي التي تقطنها طالبان وقطاع الطرق، كما سيتمكن سكان تلك الأقاليم من التمتع بفوائد تنموية، ومن ثم يتخلصون من

تنظيم الخارجين عن القانون لحياتهم. ومن المتوقع أن ينطوي ذلك على حوالي ٤٦ مليار دولار من الاستثمارات الصينية، وبالطبع أثار اهتمامًا كبيرًا بالهند التي تعتبر القوة الإقليمية المنافسة لباكستان، حيث إن رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي نفسه يسعى الآن إلى علاقة جديدة مع الصين(٢٦).

حيثما نظرنا الآن نجد الصينيين يضعون الخطط، ويحققون اتفاقات مع شركاء أقوياء وإستراتيجيين. يقترح مبلغ ٥٠ مليار دولار لمشروعات البنية التحتية والنقل والحديد والصلب الجديدة في البرازيل(٢٧). هناك حديث عن بناء الصين لوصلة نقل عابرة للأمازون عبر البرازيل وبيرو(٢٨). وهناك إفريقيا أيضًا، حيث يتركز الكثير من الحديث والمضاربة حول حجم وطبيعة الاستثمار الصيني بها. فيشير البعض إلى استثمار صيني يصل إلى ١٠٠ مليار دولار بحلول عام ٢٠٢٠. ووفقًا لرئيس مجلس الوزراء الصيني، سيتضاعف حجم التجارة بين إفريقيا والصين بحلول نفس العام(٢٩)، فيما يعتبر توقع ضخم يترقب العالم كيفية إنجازه. إذا لم يكن هناك إنتاج إفريقي أكبر من السلع أو المواد التي طلبتها الصين، فهل ستكون في السلع القادمة من الصين إلى إفريقيا، وفي هذه الحالة، أين القدرة الاستيعابية الإفريقية؟ ربما لم يتم بعد وضع الطموحات الصينية نحو إفريقيا في مخطط بشكل كامل، ولكن هناك إشارات بالتأكيد أنه يجري التفكير في استثمارات ضخمة. وتمامًا كما هو الحال في طريق

(٢٦) Carrie Gracie, "Modi Braves the 'Chinese Whirlwind'", *BBC News*, www.bbc.com/news/world-asia-china-32718384

(٢٧) "China to Invest $50bn in Brazil Infrastructure", *BBC News*, https://www.bbc.com/news/business-32747454

(٢٨) "China, Peru and Brazil mull Amazon Railway", *BBC News*, www.bbc.co.uk/news/world-latin-america-32858944

(٢٩) Zhang Pinghui, "Trade with Africa Will Double by 2020, Li Keqiang Tells Ethiopia Conference", *South China Morning Post*, www.scmp.com/news/china/article/1505388/trade-africa-will-double-2020-li-keqiang-tells-ethiopia-conference

الحرير وباكستان والبرازيل سيكون الكثير منه متعلقًا بالبنية التحتية. قد يكون من المفارقات أن الانتهاء النهائي من وصلة نقل من كيب تاون إلى القاهرة – كان سيسيل رودس أول من اقترحها في فجر الاستعمار – جاء بسبب الصين التي استعمرتها القوى الغربية في نفس وقت استعمار إفريقيا. يعتبر النقل بالطبع سمة مميزة للمشاركة الصينية في إفريقيا، فلا تزال سكة حديد تازارا – التي تربط زامبيا بالبحر عبر تنزانيا في الوقت الذي كانت تسيطر فيه القبضة البيضاء على طرق النقل جنوبًا عبر روديسيا التي سيطر عليها المتمردون البيض وجنوب إفريقيا التي يسيطر عليها نظام الفصل العنصري – نموذجًا لجميع الرؤى بما يمكن أن يقدمه الصينيون للقارة. ويعتبر المخطط الضخم الأحدث لبناء ممر نقل بإمدادات البنية التحتية عبر جنوب جمهورية الكونغو الديمقراطية، والذي أثار الكثير من العداء مع الغرب نسخة محدثة من نفس النموذج[٣٠]. وتمامًا كما هو الحال في باكستان سيزيد هذا من السيطرة الحكومية وتعزيز التنمية في منطقة متقلبة ومضطربة. ولكن إذا كانت ٢٠٢٠ سنة الهدف، ربما تمثل مجموعة العشرين عام ٢٠١٦ أفضل لحظة ممكنة لمواصفات الاستثمارات التي ستترتب عليها.

وقفة تأمل

كيف تصور السياسة الخارجية النشاط الثقافي؟ يبدو أنه سؤال بعيد عن مسألة التواصل الاقتصادي العالمي الصيني. ولكنني قد استخدمت في هذا الفصل مصطلح «الإستراتيجية الافتراضية». إذا تم استبعادها من المنظمة العالمية، فإن التاريخ الصيني بعد الحرب كان يسعى بصبرٍ هائلٍ إلى لحظة الاندماج. ولكنه في نفس الوقت، لم

(٣٠) Stephen Chan, ed., *The Morality of China in Africa: The Middle Kingdom and the Dark Continent* (London: Zed Books, 2013): 31-33.

يسعى إلى الشمولية فحسب، بل أيضًا إلى المركزية في أشكال تنظيمية بديلة، حيث يتم تصميم وبناء تلك البدائل أيضًا بصبرٍ هائل وشراكة مع نخبة مختارة من ذوي القدرات الكبيرة. وبذلك لا تصبح بدائل فحسب، بل تحديات أمام تلك الهياكل والمنظمات التي استبعدت منها الصين ذات يوم. وقد وضعت تلك البدائل/ التحديات الكبرى التي تصل لحد العظمة الصين كمخطط ولاعب مركزي، حيث تتخذ الصين موضعًا في مركز العالم. ربما ترك الغرب الصين لفترة طويلة جدًّا لا تمكنه من البدء في عملية جلب الصين من سنوات الحرب الباردة الطويلة، ثم افترض خطأ أن الصين ستصبح فور انضمامها لاعبًا مهمًّا آخر في البنية الدبلوماسية والاقتصادية العالمية. وفور انضمامها سيوضع على عاتقها مجموعة من المتغيرات من قوة التصويت الأمريكية في البنك الدولي إلى الاستجابات المخزونة وبروتوكولات العمل الخاصة بالمؤسسات الأخرى.

من المؤكد أن الصين في مؤسساتها الجديدة قد تكون عازمة على استجابات مخزونة جديدة ربما متعاطفة حقًّا مع احتياجات التنمية غير الغربية في الدول الناشئة. وقد يكون هناك تواصل حقيقي، ولكن ربما يكون أيضًا شكلًا حديثًا وعالميًّا من الشوفينية. كما أنه من المفارقات أن استثناء وتهميش المملكة الوسطى أو المملكة المركزية قد يرتد الآن على من استثنوها، حيث تسعى الصين بالمعنى العالمي للكلمة أن تصبح المملكة التي تمثل مركز العالم[٣١].

(٣١) تأتي الفكرة المركزية لهذا الفصل من:
Stephen Chan, *A Prognosis and Diagnosis for China and the 2016 G20: The Politics of a New Global Economic Geography, Evidence Report* 169 (Brighton, UK: Institute of Development Studies (IDS), 2016).

١٠

قابلية الجهاد للتفكك

طقوس الذبح

هناك مشهد رائع في رواية زيمبابوية بعنوان عذارى من حجر للراحلة إيفون فيرا يأخذ القارئ بعض الوقت والتفكير ليدرك بعد عدة صفحات أن ما حدث به كان طقسًا من طقوس الإعدام. يصف المشهد رقصة تانغو جميلة، حيث سيتعرف كل من تعلم التانغو على الخطوات، وقد يتمكن أيضًا من سماع الموسيقى. يقوم الراقص الذكر بحركة بيده لأعلى وبانحناء بينما تدور شريكته. عندما ينتهون من الدوران يخطو إلى الجانب مثل مصارع ثيران تمتد يده وترتفع قليلًا في حالة نشوة. في الواقع، هناك حركة مشابهة في كل نمط من التاي تشي. لن يرضى دارسو ذلك الفن الصيني القديم لأغراض طبية عن نزعته القتالية حيث يقطع النصل النحر وتبقى الخطوة التالية هي التنحي جانبًا حتى يخر الجسد.

وقد قامت إيفا جرين بتصوير ذلك على أفضل وجه في الفيلم السيئ – بغض النظر عن ذلك – **٣٠٠ نهوض إمبراطورية**، حيث قامت كأميرة فارسية محاربة بقطع رؤوس محاربي أسبرطة بالسكين بسلاسة. يمكنك أن ترى أنهم يموتون مع الشق الأول، ثم يحدث إزالة الرأس تلقائيًّا تقريبًا. لن يعرف أولئك الذين لم يسبق لهم الذهاب أو العمل في مَجزَر والذين يحصلون على اللحم نظيفًا وآمنًا وملفوفًا بورق السيلوفان من السوبرماركت أن الجزارين يذبحون كل الخراف عند خروجها من النفق.

يتم ذلك يدويًّا، حيث يمسك عنق الخروف بذراع واحدة ويحتضنها تقريبًا، ويطبق بالذراع الآخر ضربة التانغو التي وصفتها إيفون فيرا. ثم يمسك الذراعان بالخراف ويعلقانها على خطاف اللحم، ورأسها يتدلى من القطع حيث تُرسَل الذبيحة في عرض مروع من الفوردية حتى يبدأ الجزار التالي في السلخ ثم يقوم آخرون بالتقطيع والتعبئة والتغليف بالماكينة.

هذه هي طريقة الذبح الحلال، حيث يجب عمل شق واحد في الوريد العنقي والشريان السباتي والقصبة الهوائية. وعلى الرغم من الجدل الدائر حولها تعتبر هذه الطريقة في الحقيقة رحيمة إلى حد كبير إذ يموت الحيوان أو على الأقل يفقد الوعي حين يصل الشق إلى الشريان السباتي. والفرق الحقيقي الوحيد بين تلك الطريقة والطريقة التقليدية للذبح على الشريعة اليهودية هو أن النسخة اليهودية تتطلب قطع كلا جانبي العنق - أي الوريد العنقي والشريان السباتي على الجانبين - والقصبة الهوائية في الوسط بضربة واحدة، يعتبر الهدف في الطريقتين تصفية الدم. وهكذا ذبحت داعش ضحاياها في أشرطة الفيديو الدعائية، ويدركها كل جندي من القوات الخاصة الغربية حيث تعلموا القيام بها أيضًا.

طقوس التطهير

ربما قام كهنة عزرا بعد العودة من بابل عام ٥٣٩ ق.م. بتجميع سفر اللاويين من الكتاب المقدس الذي كان من المفترض أن يكتب عقب الخروج من مصر عام ١٢٩٠ ق.م. مما يعني أن طقوس التطهير التي يزعم أن الهدف منها الحفاظ على النظافة في ظل ظروف بدائية ظلت ممارسة ثقافية لفترة طويلة من الزمن. وهي طقوس شاملة ومتغلغلة، فهناك الكثير من غسل اليدين، كما أنها مميزة جنسيًّا حيث ينبغي على النساء وقت الحيض وبعده بفترة وجيزة أن تؤدي عملية تطهير واستحمام خاصة. كان الحيض علامة على الأنوثة وكذلك حالة أنثوية من عدم النظافة في الوقت ذاته.

هذه الطقوس تنتشر في الشرق الأوسط، فتتطلب الممارسات الزرادشتية في بلاد فارس القديمة العديد من هذه الطقوس، وقد وجد عدد كبير منها طريقها إلى الدين البهائي في القرن التاسع عشر - الذي اعتبر هرطقة في إيران الحديثة - كما هو مسجل في كتاب الأقداس القصير للنبي بهاء الله، حيث يتم تخصيص صفحة تلو الأخرى لغسيل اليد وأنواع أخرى من التنظيف.

تكمن المشكلة هنا في أن ذبح الحيوانات وتصفية الدم عن طريق قطع الحلق كان يهدف أيضًا إلى تعزيز النظافة. فالدم ملوث إذا تعرض للهواء ويصبح عرضة لجذب الإصابة الميكروبية أي أنه مثل البول في هذا الصدد. وتكمن المشكلة هنا أن طريقة ذبح داعش للسجناء والرهائن ترتبط في الواقع بالتطهير، وهذا من المفارقات الساخرة على أقل تقدير.

نسب تقريبي للجهاد

استخدمت مصطلح «تقريبي» حيث إن الجدل حول الجهاد بين علماء الإسلام كثيف. هناك بشكل عام كراهية للاستخدام المبتذل للمصطلح للإشارة إلى الحرب والتمرد، على الرغم من أن التمرد كسبب للحرب قد يكون معقدًا. فالحرب والعنف هما «جهاد» أقل على أية حال، حيث إن الجهاد «الأكبر» يتعلق بالكفاح، وخاصةً كفاح النفس. تشبيهًا بالمسيحية، يمكن اعتبار كفاح جيروم في البرية أثناء قيامه بترجمة الكتب المقدسة إلى اللاتينية جهادًا. ولكنني أستخدم المصطلح هنا بمعناه المعاصر والمشترك للإشارة إلى التمرد الذي يتحول إلى حرب دولية، مع مراعاة أن عادةً ما يتم وصف التمرد على أن له سببًا وجيهًا. هذا محور الجدل. فما يبدو غير عادل هو عدم التمييز المتعمد في إدارة الحرب من خلال استهداف الجماهير غير المقاتلة وهو ما تحظره مبادئ أوغسطين واتفاقيات جنيف.

ومرة أخرى بعد كل هذا، فإن الذبح الجماعي - الذي يستحضر استخدامات عارضة ولكن قوية لمصطلح «الإبادة الجماعية» - أمر بشع شائع في عالمنا اليوم. فقد كان هناك ما يقدر بمليوني قتيل في ساحات القتل الشاسعة بجمهورية الكونغو الديمقراطية في العشرين سنة الماضية وكمية لا حصر لها من القتل على أساس نوع الجنس حيث انتقل هذا الصراع وأعماله الوحشية إلى الدول المجاورة، مما أشعل فتيل الإبادة الجماعية في رواندا عام ١٩٩٤. وقد أرسل لي طلابي الذين كانوا جنودًا متشددين في قوات حفظ السلام الزامبية برواندا رسائل ألم حول ما وجدوه والأعداد الهائلة التي قاموا بدفنها. لقد كان عليَّ أنا شخصيًّا أن أعد الجثث في مواقع الإعدام الجماعية في الحروب الإفريقية، وفي النهاية توجب عليَّ ببساطة تقديم تقارير عن تقديراتي حيث فقدت الرغبة في العد بعد مئات المرات.

لا أريد أن أقع في فخ ماري كالدور المتعلق بـ«الحروب الجديدة» وافتقارها إلى العقلانية[٣٢]. فهذه العقلانية موجودة حتى إن بدت بشعة ومرعبة. لكنني أقر بأن ما يجعل الجهاد يبدو مرعبًا هو ذلك الوجود المتعمد للعقلانية والأيديولوجية والعقيدة والإيمان التي غالبًا ما تكون مصحوبة بالعلم. ويعتبر مؤشر «الأعمال الوحشية بحسابات وإيمان» هو ما يرتبط بالجهاد. وهي حركة مستوحاة من الإبادة النازية لليهود في الحرب العالمية الثانية التي هي «عمل وحشي بحسابات وأيديولوجية». ولكن يُوَلِّد وجود الإيمان جدلًا عالميًّا، بدلًا من نقاش عالمي مناسب نظرًا لربط الإيمان بالوحشية.

(٣٢) Mary Kaldor, *New and Old Wars: Organized Violence in a Global Era* (Cambridge: Polity, 2012).

وعليه، أود الآن أن أعطي نبذة مختصرة عن ثلاث مجموعات «أصولية» «متمردة» أصبح إلى حد ما من الصعب تمييزها في مفرداتنا. وقد أصبح كل منها مجازًا لشيء بشع ومهدد. ولكن تختلف كل واحدة عن الأخرى، كما يمكننا بالتأكيد في الحالة الأولى إضافة بعض الرومانسية إلى الوحشية والحسابات والإيمان (إن لم تكن حرامًا للقراء الغربيين). تلك المجموعات الثلاثة هي: حركة طالبان الأفغانية، والقاعدة، وداعش.

حركة طالبان الأصلية

بدأت الحركة كرد فعل على السياسة الغربية التي تركت أفغانستان في أيدي أمراء الحرب الجشعين الذين تم تمويلهم وتسليحهم بأموال سعودية عبر باكستان (تقدر بحوالي ٤٠ مليار دولار) بتحريض من الولايات المتحدة لهزيمة الاحتلال السوفييتي. عندما انسحب السوفييت كان أمراء الحرب قد سبقوهم في الاستيلاء على شعوبهم، لكن الغرب حقق أهدافه ولم يعد لديه أية مصلحة في بلد جميل، لم يحكمه أحد بنجاح ككيان واحد ذي سيادة لفترة طويلة في العصر الحديث.

وقد استهزأ البعض بالقصة التالية كدعاية لحركة طالبان. ولكن اعتبرها أحمد رشيد الصحفي الباكستاني الشهير حقيقية. حتى لو لم تكن صحيحة، فقد أشبع استخدامُها كخرافة أو قصة توضيحية الحاجةَ إلى أساس مبرر. إنما المثير للاهتمام هنا هو إشباع تلك الحاجة بهذا الشكل الرومانسي.

كان الملا عمر شيخًا قرويًّا في منطقة قندهار. وقد فقد إحدى عينيه إثر قتال السوفييت. يومًا ما سعى إليه والدا فتاتين مراهقتين قام أمير الحرب المحلي بخطفهما واعتبارهما من المحظيات في قاعدته شديدة التحصين. لم يترك الوالدان أي شخص يمكن اللجوء إليه. لم يكن بيد عمر شيء، لكنه غضب وأراد أن يحاول فجمع مجموعة من الطلاب (طلاب اللاهوت) وتمكنوا معًا من تأمين بندقية واحدة لكل

طالبين منهم. ثم هاجموا ثكنات أمير الحرب وانتصروا بأعجوبة فأنقذوا الفتاتين وشنقوا أمير الحرب على مدفع إحدى دباباته. ومن هنا ولدت الأسطورة وتوافد المقاتلون الشباب ممن سئموا من استباحة أمراء الحرب لبلادهم إلى عمر؛ وولدت حركة طالبان. كانت تلك القصة في حد ذاتها مجرد أسطورة من أساطير روبن هود، ولكن تم إسناد الرومانسية للإيمان ولجيش من المؤمنين، وعليه بدا إمكانية قيام قومية جديدة مطهرة. فقد هاجم جيش طالبان - الذي يهاجم الآن بالشاحنات الصغيرة من طراز تويوتا المسلحة بأسلحة رشاشة - كابول عام ١٩٩٦.

كان أمير الحرب أحمد شاه مسعود حاكم كابول. وكان مسلمًا سنيًّا مثل طالبان، ولكنه كان من الشمال وليس من مناطق بشتون في الجنوب، وبهذا ظهر بعد عرقي. كان مسعود محط إعجاب شديد في الغرب خاصة كرمز بطولي من قبل أمثال برنار هنري ليفي - المفكر المغرور المستفز ذو التأثير الكبير في باريس - والذي سعى إلى تملق مسعود للرئيس ميتران. كان لمسعود وسامة نجوم السينما وكان يرتدي أحذية غوتشي تحت ملابسه التقليدية. ولكن خلف كل هذا السحر كان يتمتع باحترام حقيقي لحقوق الإنسان، ولاسيما حقوق المرأة. لكنه لم يستطع صد هجوم طالبان وانسحب شمالًا إلى قاعدته العرقية. عاد أسامة بن لادن إلى أفغانستان قبيل الهجوم على كابول ليضمن اغتيال مسعود في اليوم السابق لهجمات ١١ سبتمبر، وقد ذهب إليها أول مرة عام ١٩٧٩ لمحاربة السوفييت وكان له العديد من المغامرات في السودان وفي أماكن أخرى منذ ذلك الحين. عرف أسامة بن لادن أن الولايات المتحدة ستأتي من أجل القبض عليه وأراد أن يخرج العدو المحلي المهيب من المعادلة. وعندما جاءت قوات الولايات المتحدة وقوات الناتو استخدموا جيش التحالف الشمالي لمسعود كرأس حربة، وقد كانت قوات الناتو مجهزة بمترجمين من منطقة بشتون. لكن معظم الشماليين لم يتحدثوا بلغة بشتون أيضًا، وكان الجنوب يكرههم. كانت أفغانستان لتغرق دائمًا في حرب أهلية كان لحركة طالبان فيها دعم كبير من الجنوب.

القاعدة

تميزت قصة أسامة بن لادن دائمًا بعنصر الفتى الثري الذي يلعب دور محارب. ولكنه وجه بالفعل معظم ثروته السعودية لقضاياه، حيث موّل الكثير من الأمور التنموية أثناء إقامته في أفغانستان. وأصبح بالفعل مقاتلًا جيدًا. وقد أصيب إثر قتاله السوفييت. وقد بدا من أشرطة الفيديو الدعائية أنه يجيد استخدام الكلاشينكوف. ثم أعلن الحرب على الولايات المتحدة قبل عودته إلى أفغانستان عام ١٩٩٦ لسببين: لتواجدها في «الأراضي المقدسة» أي على الأراضي السعودية أثناء حرب الخليج الأولى؛ ولآرائه بشأن الهجمات الأمريكية على أجزاء أخرى من العالم. لا يزال السؤال حول من أنشأ القاعدة ومتى بالتحديد محط جدل، ولكن المؤكد أن أسامة بن لادن تزعمها عام ١٩٩٦. لم يكن المقصود من القاعدة أن تصبح تنظيمًا أفغانيًّا وإنما أساس للجهاد العالمي. وقد كان إغراء الولايات المتحدة نحو حرب في أفغانستان أولى الخطوات الرئيسية لذلك الجهاد، حيث من المتوقع أن تضعف صناع السياسة الأمريكية والعوام الذين سيجدون أنفسهم في مأزق، كما تأمل في قيام الولايات المتحدة بالأعمال الوحشية للبث العالمي أمام جمهور جهادي محتمل كبير. باختصار ستقدم الولايات المتحدة أسس التمرد العالمي المستند إلى قضية عادلة.

هناك ملاحظتان في إطار إستراتيجية واعية مفصلة. الأولى: لم تعتبر القاعدة تنظيمها الذاتي متجانسًا. ولم يكن هناك هيكل تنظيمي بقيادة مركزية، حيث تم تصميمها بشكل متعمد كمنظمة خلية ينتمي أعضاؤها إلى أيديولوجية وإيمان وعقيدة تشغيلية ضد عدو مشترك. لن تقام خلافة حتى يتضح أن الولايات المتحدة قد هُزمت أو أضعفت معنوياتها بشكل كامل وانسحبت من الهيمنة العالمية، ولاسيما انتشارها القوي في الشرق الأوسط.

داعش

نشأت ما يطلق عليها الدولة الإسلامية في العراق وسوريا (أو بالشام) كجناح للقاعدة في العراق. عندما سعت داعش إلى شق طريقها لسوريا أثناء الانهيار الذي تسبب فيه فشل الربيع العربي وفوضى القمع والانتفاضة، احتجت مجموعات أخرى من تنظيم القاعدة بأن أراضيها قد تعرضت للتعدي. وبمقتل أسامة بن لادن ورغم تحذيرات كبار قادة القاعدة تحولت الطبيعة اللامركزية للتنظيم إلى تنظيم مسلح حول قيادة مركزية، واستمر العراقيون مجندين حوالي ٨٠٪ من مقاتلي جبهة النصرة (جناح القاعدة بسوريا) وأعلنوها نفسها باسم جديد وقائد مركزي جديد أطلق على نفسه الخليفة البغدادي، حيث يوحي اسمه أن أصوله من بغداد، وقد حصل أيضًا على درجة الدكتوراه. كانت فكرة الخلافة وهي شكل إسلامي من الدولة الثيوقراطية تحديًا مباشرًا لنظام الدولة الوستفالي السائد.

على عكس القاعدة، التي كانت تنوي محاربة الغرب إلى طريق مسدود قبل إعلان الخلافة – كنموذج الدولة لسائر العالم الإسلامي – بدأ البغدادي بالخلافة، وأعلن أن الشكل التقليدي لتنظيم الدولة الإسلامية سيهزم الدول الكافرة. لم يقتصر الأمر على كون أعدائه كفارًا، ولكنها كانت دولًا في نظام الدولة القائم. كان البغدادي رئيسيًّا في العلاقات الدولية.

الأيديولوجية المشتركة

يسعى تنظيم الدولة الإسلامية داعش إلى محاربة الجهاد لإقامة نظام دولي جديد، مما يعتبر إلى حد ما أهم من الروايات ذات البعد الواحد عن أصلها الأيديولوجي إلى جانب حركة طالبان والقاعدة والحركة الوهابية في المملكة العربية السعودية. تختلف طموحاتها السياسية عن طموحات طالبان والقاعدة، أما المملكة العربية السعودية،

فتسعى إلى أن تكون دولة وستفالية بينما تسترضي بقدر ما تستطيع الضغوط الوهابية القوية في الداخل. حتى مارس ٢٠١٥، لم يكن هناك في الصحافة الغربية سوى مقال واحد من ٣٠٠٠ كلمة في مجلة أتلانتيك[٣٣] عن معتقدات ودوافع تنظيم الدولة الإسلامية داعش؛ لذا كان الغرب إلى حدٍّ كبير يحارب شيئًا لا يعرفه جيدًا. ومنذ ذلك الحين صدر عدد كبير من الكتب، بما فيها بعض الكتب لمؤلفين ذوي خبرة باللغة والدول العربية. كان التوتر داخل المملكة العربية السعودية تحديدًا جوهر كل هذه الأعمال، حيث كانت في الوقت نفسه حليفًا للولايات المتحدة، ومصدرًا للكثير من النفط المستخدم في الغرب، وتعويضًا بعد فشل العراق أمام القوة الناشئة لإيران، ومصدرًا لكثير من التمويل المبكر لتنظيم القاعدة وداعش من خلال وسائل غير حكومية. كان هذا تناقضًا صارخًا، لا تمتلك الولايات المتحدة أية سياسة لمواجهته.

عام ١٧٤٤، قاد رجلان جيشًا من الصحراء واستوليا لفترة وجيزة على الكثير مما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية. تكوّن هذا التحالف من الزعيم القبلي محمد ابن سعود والواعظ محمد بن عبد الوهاب. لم يتمكن آل سعود رغم ثروتهم التي بدأت في الارتفاع في القرن العشرين وخيانتهم للوهابيين في النضال من أجل البلاد من تخليص مجتمعهم من أيديولوجية الصحراء المتقشفة. وفي ١٩٧٩، زلزلت انتفاضة وهابية آل سعود الذين اعتبروا بلا منازع حكام البلد المعترف بها كدولة وستفالية والذين أصبحوا أثرياء فوق تصوراتهم بسبب عائدات النفط والتدفق الضخم للأموال بعد ارتفاع سعره عام ١٩٧٣، جاءت انتفاضة الوهابيين ردًّا على ترف آل سعود ووجود الأجانب المتمثل في شركات النفط الأمريكية على الأرض المقدسة. استولت مجموعة من المتمردين على المسجد الحرام في مكة وصمدت أمام الهجمات السعودية المستمرة

(٣٣) Graeme Wood, "What ISIS Really Wants", *The Atlantic*, https://www.theatlantic.com/magazine/archive/2015/03/what-isis-really-wants/384980/

لمدة ثلاثة أسابيع بفضل الدعم المالي الكبير والتدريب العسكري الواضح، مما أوجب إخلاء مكة بالكامل. وقد سبب ذلك ارتباكًا شديدًا لآل سعود الذين لم يتمكنوا من حماية أكثر الأماكن قدسية. وفي النهاية كان الأجانب أنفسهم من تغلب على مقاومة المتمردين برغم اختلاف الروايات عما إذا كانوا من القوات الفرنسية الخاصة التي اعتنقت الإسلام رسميًّا لهذه المناسبة أو القوات الباكستانية أو حتى ضباط المخابرات المركزية الأمريكية. تم إعدام المتمردين المأسورين علنًا، لكن يُعتقد أن آل سعود بعد أن زعزعها الحدث وجدت من الضروري إبرام صفقة خاصة مع المؤسسة الدينية للبلاد.

باختصار، كان فحوى تلك الصفقة أنه في مقابل استمرار الحكم واستمرار الوجود الأمريكي في أرض تعتبر - خلاف ذلك - مقدسة، ستصبح الأرض أكثر قداسة من خلال السيطرة الفعالة لرجال الدين على التعليم والمسائل القانونية والمسائل الاجتماعية، بما في ذلك مسائل المساواة بين الجنسين والانضباط الاجتماعي. ذلك بالإضافة إلى غض الطرف عن الدعم السعودي غير الحكومي للمجموعات ذات الأيديولوجية المشابهة في أماكن أخرى، حتى إن كانت تقاتل الولايات المتحدة.

وتتجلى الرقابة التعليمية إلى حدٍّ ما في سهولة اقتباس الدراسات الإسلامية لداعش بمدينة الموصل التي تم الاستيلاء عليها من الكتب الدراسية السعودية. تتعلق المسائل القانونية باستخدام المبادئ والأسس الفقهية للشريعة. ولا ينادي التيار الاجتماعي المحافظ فقط بإنكار الحريات والحقوق المدنية للتنظيمات السياسية بالمنظمات المهمة، وإنما أيضًا لفرض قيود على المرأة، ويشمل ذلك الحظر المشين على قيادة المرأة للسيارات. كما يشمل الضبط الاجتماعي على غرار الممارسات الجسدية القديمة عقوبات الجلد وقطع الرأس لما يمكن اعتباره اليوم جرائم لا يعاقب عليها بالإعدام في أماكن أخرى من العالم. والجدير بالذكر أن تلك الممارسات لا تختلف عن الممارسات الأوروبية في القرن السابع عشر.

اتخذت نصوص التعليم الديني السعودية منحنى ضد الكفار، مما جعلها جذابة بشكلٍ خاص لداعش (وقد تم تعديلها على نحو سريع بعد أن تبنتها داعش). باختصار، فالسؤال المستفز المثير للجدل والمهم في الوقت ذاته ليس كيف تشبه داعش «العصور الوسطى»، وإنما كيف تشبه أو تطمح في أن تشبه المملكة العربية السعودية الحديثة.

يُقال الكثير عن الطبيعة المتقشفة للحركة الوهابية، بالرغم من أن تزايد ثراء آل سعود يستمر في اختبار صبر رجال الدين بشكلٍ قاسٍ. لكن رجال الدين أنفسهم يستفيدون من الثروة ويعيدونها على شكل مجموعة كبيرة من الأوقاف والمنح الدراسية والندوات الدولية. إنها تصيغ محافظة متوازنة في قوة ناعمة يمكن تمييزها بالكامل على طول ما يُعتبر الآن الخطوط الكلاسيكية للقوة الناعمة التي وضحها ناي، ولكن للعقيدة جانبان رئيسيان آخران صلبان وليسا ناعمين على الإطلاق؛ أولًا: سيتم تطهير العالم في مرحلة ما، حيث سيظهر المهدي الحقيقي - وهو شخصية تطهيرية - ليعد العالم ليوم القيامة. هناك جانب جلي من علم الآخرات بالعقيدة. وثانيًا: استعدادًا للمهدي يجب شن الحرب أو الجهاد ضد الردة، والتي تعرف بشكل عام لتشمل الإسلام غير السني بما في ذلك الشيعي. وهنا تكمن الفكرة الرئيسية المتعلقة بالسلوك العادل في الحرب أو الجهاد، فبالتحديد بسبب ارتدادهم لا يتعامل المرتدون بالعدل تجاههم في أوقات الحروب، وبالتالي يجوز التعامل معهم بوحشية. وسيظهر المهدي في بداية عهد الخلافة الجديد.

الشرق الأوسط الاستثنائي

شهدت نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين تآكل الخطوات الضخمة نحو العلمانية في الشرق الأوسط: مصر في عهد ناصر من ثورة الضباط الأحرار لعام ١٩٥٦، فوز حزب البعث المثير للجدل حيث استولى حافظ الأسد على السلطة في سوريا عام ١٩٧٠ وصدام حسين في العراق عام ١٩٧٩، وقد خلف كل ذلك

ثورة أتاتورك في تركيا عام ١٩٢٢. كانت في جميع تلك المناطق أشكال من الإسلام تجبر عصر العلمانية على التراجع. وأسفرت الثورة في إيران عام ١٩٧٩ عن نهاية حكم الشاه وبداية حكم آيات الله، وهناك تعليقات خاصة حول الشيعة في إيران، ليست لتبرئة النظام الديني، وإنما للإشارة إلى درجة من البراغماتية العملية، والأهم من ذلك التوجه الثيوقراطي المركزي الذي يعتبر فعالًا وعمليًّا، وقد يقول البعض أيضًا أكثر تطورًا من خصومه الوهابيين.

تكمن الاختلافات الرئيسية بين السنة - بفصيلها الوهابي- والشيعة في قضايا تتعلق بالنسب للنبي (لذلك يدّعي كل اتجاه أصالته)، وقضية المهدي. ففي الإسلام السني لم يأت المهدي بعد، أما في الشيعي أتى واستتر (في «الخفاء») وسيأتي مرة أخرى. كما يوجد اختلافات في تفسير الشريعة وأقوال فقهاء الإسلام. يعتقد الوهابيون السنيون أن الشيعة مرتدون، بالإضافة إلى بعض القضايا الثقافية الإقليمية التي يتم تضخيمها وتشويهها بالتعصب حتى إن الكثير من السعوديين السُّنّيين يعتقدون أن الشيعة لا يغتسلون بشكل صحيح ويبصقون في طعامهم.

يدرك الشيعة - وأغلبيتهم في إيران كما تناولنا في فصلٍ سابق - أن لهم تراثًا طويلًا غير متقطع من أيام الإمبراطورية التي نافست الرومان وواجهتم، وتنظيم الفكر الأرسطي والأفلاطوني وتنميته بينما كان ضائعًا في الغرب. وتميز إرثهم أيضًا بالطبيعة المتعددة الثقافات للإمبراطورية الفارسية والمعرفة الكزموبوليتانية بالأديان المختلفة الواضحة في الزرادشتية وتأثيراتها على المسيحية قبل ظهور الإسلام بوقتٍ كبير والتي تعتبر أكثر ملاءمة للصوفية التي يعتبرها الوهابيون أيضًا من الردة. هناك دافع ثقافيّ مختلف للشيعة ولا يرتبط بأي من الأساليب الصحراوية المتقشفة المتعلقة بالتعاليم الوهابية.

تستمد البراغماتية الحديثة أيضًا من عمل عالم الاجتماع والفيلسوف المدرّب في فرنسا علي شريعتي الذي كان له تأثير فكري كبير على ثورة ١٩٧٩. كان لديه وجهات نظر تقدمية نحو النساء، وعلى الأخص اعترف بدور المرأة عندما يتعلق الأمر بالنضال من أجل قضية، ولاسيما قضية قومية أو تحررية. هناك صدى غريب لهذا في دستور حماس، حيث يوجد نص صريح على أن يقررن النساء بإرادتهن النضال من أجل القضية الفلسطينية القومية دون إذن من أي رجل سواء كان زوجًا أو أبًا.

ويوجد كما أشرنا من قبل شهادة نائب الأمين العام السابق للأمم المتحدة جياندومينكو بيكو الذي تفاوض على نهاية الحرب الإيرانية/ العراقية - التي شنتها العراق في عهد صدام حسين بتحريض وتمويل من الولايات المتحدة عبر المملكة العربية السعودية - ثم على إطلاق سراح الرهائن الغربيين في لبنان عام ١٩٩٢. وكما صرح بيكو، لم يحدث منذ ذلك الحين أي عمل عدائي من الفصائل الشيعية أو حتى بتحريض منها ضد أي هدف غربي. وكذلك لمح بأن الجدل الغربي مع إيران سياسي وإن كان له صبغة دينية. ولكن قضت الثورة على تطلعات كسنجر لتطوير التحالف الأمريكي مع الشاه، وقد حدث ارتباك أمريكي بشأن احتجاز رهائن السفارة في الأيام الأولى لثورة ١٩٧٩، حيث ظهرت الحاجة للوقوف إلى جانب المملكة العربية السعودية ضد التهديد الشيعي المتوقع للمصالح السنية، وعلى أية حال، لضمان توازن القوى بين المملكة العربية السعودية وإيران الذي تحول في الآونة الأخيرة مع الخطوات الإيرانية الملموسة نحو القدرة النووية لضمان توازن قوى دقيق بين إيران وإسرائيل ذات القدرة النووية.

تحتاج العديد من التعليقات الواردة أعلاه إلى فهم دقيق وإشارة إلى أمثلة أخرى. ربما كان صدام حسين علمانيًّا وربما أدرج النساء في حكومته وطور من تعليمهن بشكل كبير، لكنه اضطهد الأقليات وخاصة الأكراد، ولم تسلم من وحشيته المرأة الكردية. وتشكل النساء الكرديات وأغلبهن تابعات للإسلام السني وحدات قتال

فعالة ضد داعش الوهابية السنية. وبالطبع لم تكن داعش منزهة عن القتل والتشويه لمقاتلات ونساء الأكراد بشكلٍ عام. كما تسببت داعش في أعمال وحشية جماعية ضد المرأة اليزيدية، حيث يعتبر اليزيديون غير إسلاميين برغم أن لهم تعاليم وطقوس صوفية، وكذلك ليسوا مسيحيين، ولكن لديهم مزيج إجمالي من المعتقدات؛ لذلك كان من السهل على داعش اعتبارهم كفارًا.

وقفة تأمل

يبدو أن المكافأة الغريبة للشهداء الوهابيين نابعة من احتياجاتهم الخاصة، حيث ستلبي العذارى ذوات العيون الداكنة كل الحاجات، بما في ذلك تلبية الاحتياجات الجسدية في الجنة. على النقيض من ذلك، تهدف أشرطة الفيديو الدعائية الخاصة بالمقاتلات الكرديات بشكل واعٍ إلى الحصول على دعم من الغرب والنساء الغربيات، حيث ترسلن رسالة فحواها «نحن أيضًا نود أن نكون أحرارًا مثلكن لأننا مثلكن». إلا أنهن يعشن في بلد لن تصبح حرة أبدًا كدولة مستقلة، ولن تتخيل الجماهير الغربية في معظم الأحيان أنهن بحاجة إلى دولة تضمن لهن الحق الدستوري بأن يكن نساء أحرارًا وأشخاصًا متساوين. تظهر ثنائية امرأة مقاتلة وقاتل إسلامي يتشح السواد فورًا دون الحاجة إلى استجواب سياسي.

تكمن الحاجة إلى مثل هذا الاستجواب بالتحديد في أن معاملتنا للإسلام وفروعه وأسبابه العادلة المقترحة ومشاكله الشرسة لا تؤول فقط إلى خيال، وإنما تؤول تحديدًا إلى ذلك العالم الذي يستخدمه بشكل جيد، من يستقطب المقاتلين لداعش، حيث يكون كل شيء مكتظًّا ومجمّعًا وفقًا للتعليمات لتشكيل نموذج مثالي للعدالة والتبرير والسياسة المبسطة والردة.

وعليه، فإن الجوانب الحسية في ظاهرة داعش بالتحديد تستحق على الأقل بعض التعليقات العابرة، ولكن يجب ألا تكون بديلًا للاستجواب السياسي القائم على التقييمات والمنهجية الدينية. إن الحاجة إلى القتل بالطقوس أمر شائع في ساحة المعركة في سوريا والساحات العامة في المملكة العربية السعودية وكذلك في الساحات العامة في الصين، ولكن يكمن الفرق في حميمية التنفيذ. يصوب الجلاد في المملكة العربية السعودية بسيف يجب تصويبه كضربة خلفية - مثل الضربة الخلفية في التنس - كي يقطع الوريد العنقي والشريان السباتي أولًا، لكنه لا يحتاج أبدًا للمس ضحيته. وتهدف طريقة داعش إلى تحقيق الغرض ذاته، ولكن يتم تنفيذ الإعدام بعد لمس رأس ورقبة الضحية فيما يشبه المداعبة كما في رقصات إيفون فيرا. ويصبح كل موت كفارة كمبرر لأعمال التطهير. إنها لحظة مرعبة بالنسبة لنا، أما للجلاد فهي لحظة من القدسية الوحشية. وتظهر في المؤانسة لقتل شخص آخر مسألة لا تتعلق بالسياسة فحسب وإنما بسيكولوجية الجهاد أيضًا. قد لا يكون هذا الجهاد الأكبر ولكنه يحمل نفس عمقه؛ ولذلك وجب علينا إجراء بعض الدراسات عن الجهاد ليس في السياسة الخارجية، وإنما في أصول تلك السيكولوجية.

١١

هل هذه هي الأيام الأخيرة للنظام العالمي؟ ليالي الجهل الطويلة قبل نهاية العالم

شددت كلية كوبنهاجن للعلاقات الدولية على الأساس الاستطرادي لطريقة تعاملنا مع العالم، حيث تخلق طريقة تفكيرنا في الأمور الدولية وما نعجب به ولاسيما ما نخشاه شكلًا هيكليًّا إما يستجيب له صانعو السياسات أو يحاولون التلاعب به. لا يمكنهم تحويله على الفور كشيء جديد ومختلف، ولكنه قد يبدو مختلفًا في نهاية عملية طويلة من الاستجابات، ولكن لن يكون من الصعب التعرف عليه من الخطاب العام الأصلي. بقدر ما يسعى واضعو السياسات إلى خلق تهديدات من قبل علاقات دولية «لم تكن معروفة من قبل» ثم يسعون للحصول على دعم استطرادي عام، فإنهم يسعون أولًا إلى اللجوء إلى مجموعة من وسائل الإعلام والشخصيات الموثوق بها، وقد أصبح الآن في معجم صناع القرار استخدام (أو سوء استخدام يلام عليه الأكاديميون المعنيون) ما يطلق عليه تشومسكي «البيروقراطيين الجدد» من المدققين «الخبراء» للسياسات الجديدة التي تتطلب مثل هذا الدعم الاستطرادي العام[٣٤]. ربما تم تصوير العراق بصورة دولة بها أسلحة للدمار الشامل، وتم إطلاقها فورًا في الغرب بواسطة وكالة إعلانات من أجل استخدام عبارة «أسلحة الدمار الشامل» المثيرة للاهتمام والتي تشبه الإعلانات الدعائية، ولكن اصطف مجموعة مفاجئة من الخبراء

---

(٣٤) Noam Chomsky, *American Power and the New Mandarins* (New York, NY: Pantheon Books, 1969).

الشرق أوسطيين خلف هذه الحيلة، وخاصة أولئك الذين ربطوا العراق على الفور بالتهديد الإسلامي في محور الشر، مما قاد الجمهور إلى الاعتقاد بأنه «صراع حضارات» لا مفر منه.

طغى التخويف على الخطاب، ويمكن تفهم ذلك جزئيًّا بشكل واضح بعد هجوم ١١ سبتمبر، لكن ربط هذا الخوف بالعراق كان استهدافًا متعمدًا لسوء الفهم. تعتمد خطابات التخويف وسوء الفهم على التبسيط في المقام الأول. ويعتبر ابتكار التبسيط كخطاب عمل فني غريب، ولكن باستجابة الجمهور لهذا الخطاب والضغط الاستفزازي على صانعي السياسة للتصرف، يتمكن صانعو السياسة أنفسهم من تطبيق استجابات مخزونة. يجب أن يكون الرد مخزونًا، حيث لا يوجد وقت أو ميل تنظيمي لابتكار أي شيء جديد. وفي حالة توجيه كل آليات الدفاع بتكلفة باهظة إلى نوع معين من الحروب، يجب شن هذه الحرب إذا تطلب الأمر اتخاذ إجراء فوري، حيث لا يمكن إعادة هيكلة وإعداد آلة عسكرية كاملة، وحتى أجزاء منها فقط ستتطلب إعادة توجيه عقائدي؛ ولذلك لم تكن مطاردة الإرهابيين في الجحور المظلمة ردًّا كافيًا بعد ١١ سبتمبر، وكان على الآلات والسياسات العسكرية مهاجمة دولة أخرى - عدو في حدود دولية واضحة - يمكن استهدافها بتخطيط الآليات التي لطالما تطورت وتدربت من أجل غزو دولة أخرى. وكان من الواضح أن العدو يعيش في تلك الدولة. فبعد اختيار وغزو أفغانستان جاءت العراق الذي أطلق العدو الإسلامي نفسه الذي تم ابتكاره لأغراض استطرادية ليطور حياة استطرادية لنفسه بالمشاركة في الدوائر الفاضلة (أو المزعجة) التي تربط الخطاب العام بالسياسي بشكل وثيق.

التهديد ينتقل إلى الداخل

كان الإدراك البطيء بأن «الإرهاب الإسلامي» لا يتطلب دولة مركزية مضيفة، وأن أسامة بن لادن قد اجتذب القوى الغربية عن عمد إلى صراع أفغاني حتى يكون

موقعًا لـ«حرب العلاقات العامة» من أجل إدانة «الصليبيين الغربيين» في خطاب إسلامي جديد مؤلم وبطيء، حيث كان يتطلب إعادة ترتيب ردود الأفعال المخزونة. وإذا لم يعد للعدو موقع يمكن مهاجمته، أو إن كان العدو في كثير من الأحيان بالفعل داخل دولنا يتحول الخطاب من الخوف والتبسيط إلى شكلٍ من أشكال هلع الدول البوليسية التي لم يقترب أي منها من هزيمة «العدو»، بل ربما تسببت بالفعل في زيادة تجنيده ليظهر فجأة المزيد من الأعداء.

لم يؤد المزاج الجديد للأمننة الداخلية بالضرورة إلى أي تعقيد في الفكر، حيث استخدمت السياسة المحلية المتمثلة في المراقبة والتأمين ردود الأفعال المخزونة بنفس الطريقة التي اتبعتها السياسة الخارجية. ولكننا أدركنا تدريجيًّا أن القاعدة تختلف عن طالبان في أفغانستان، وأن أسامة بن لادن برغم تعاطفه مع حركة طالبان ربما استخدمها بقدر ما ساعدها من أجل شن حربه العالمية مستخدمًا الهيكل الخلوي للقاعدة الذي جعل منها وحشًا متعدد الرؤوس إن قطعت رأسًا خرج من رقبته اللعينة اثنتا عشرة. لم يمانع أسامة بن لادن خسارة أفغانستان، حيث انتشرت عملياته إلى ما هو أبعد من تنظيمهم الفوق مركزي المبكر. وقد كسب الوقت حيث عسكرت القوات الغربية في أفغانستان، ثم تغلغلت في العراق في لفتة شبه محسوبة لمساعدة خطاب القاعدة. لم يكن لتنظيم القاعدة أي وجود سابق في العراق، وأصبحت قادرة على إطلاق عملياتها في الشرق الأوسط من هناك بفضل التدخل الذي قادته الولايات المتحدة.

ولكن لأن القاعدة كانت خلوية قد يتغير مخزونها من بلد إلى آخر - حيث أصبح أسامة بن لادن في النهاية مجرد واحد من عدة قادة إقليميين - لم تتمكن الاستخبارات على الإطلاق من الوصول لنقطة مركزية، أي نقطة تنسيق تكتسب بها المعلومات معانيَ أو على الأقل تترابط. ثم بعد أن بدأت المعلومات ببطء في اكتساب بعض المعنى المترابط رغم تباينه، امتنع المجتمع الاستخباراتي عن أخذ ظهور داعش

على محمل الجد. كان المجتمع قد توصل للتو إلى بعض المخزون من أجل التعامل مع القاعدة. هل عليه أن يبدأ من جديد؟ بالطبع يمكن تحليل داعش بنفس الطريقة التي تعلّم بها تحليل القاعدة. وبالإضافة إلى أنه لم يكن هناك أية معلومات عن داعش قبل ظهورها المفاجئ. وينطبق ذلك أيضًا على المجتمع الأكاديمي، حيث لا يمكن لأي خبير شرح الظاهرة أو تفسيرها بطريقة منطقية للسياسة والخطابات العامة والترابط المرجو والعلاقة بين الخطابين. كان على تلك الخطابات أن تحتفظ بالجو العام للبساطة والتخويف.

أما قتل أسامة بن لادن الذي تمكن بطريقة ما من الاحتفاظ بزعامة التنظيم غير المتجانس، فقد كان أسوأ ما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة. الآن بالفعل لا يوجد قيادة مركزية، مما أدى لتضاعف رؤوس القاعدة حتى إنها قاتلت داعش في سعيها للتضاعف أو البقاء أو مجرد النجاة. وربما نحتاج الآن أسامة بن لادن حيث يظهر التنين الجديد.

بدون سابق إنذار

استخدم معلقون غربيون مصطلح «بدون سابق إنذار» حين تفاجؤوا بقدرة السوفييت على شن هجوم واسع على أفغانستان عام ١٩٧٩ دون مؤشرات مسبقة بأنهم يخططون لمثل هذه العملية الضخمة. كان فشل الاستخبارات الغربية نتيجة لعدم وضع أفغانستان عين الاعتبار عند مراقبتها للاتحاد السوفييتي. لم يكن الأمر «بدون سابق إنذار» بقدر ما كان نتيجة لعدم القدرة على قراءة المؤشرات. وفي حالة مشابهة تمامًا بعد أن أنهكها تهديد القاعدة بالإضافة إلى طالبان التي كانت في هذه المرحلة تمثل تشويشًا مناسبًا للغاية شبه مخطط لحصر تركيز الغرب في مكان واحد بدلًا من أماكن متعددة، ظهرت داعش «بدون سابق إنذار» وفي طرفة عين استولت على مناطق شاسعة من العراق وسوريا. انهار الجيش العراقي الذي جهزته الولايات

المتحدة بتكلفة باهظة للغاية مثل رقعة ثلج في يوم حار مفاجئ من أيام الصيف الأولى. كانت العراق وأفغانستان في تلك المرحلة تحظيان بأكبر قدر من الإعانات العسكرية الأمريكية – تجاوز كل ما حصلت عليه إسرائيل ومصر وقد اعتبرا أكبر المستفيدين في الماضي – ولكن دون جدوى. وبغض النظر عن المفاجأة، كانت إستراتيجية معركة داعش ببساطة أكثر من اللازم بالنسبة لجيش عراقي ذي قيادة فاشلة. وقد ملأت داعش الفراغات التي نشأت في خضم الحرب الأهلية السورية، واستولت على أغلبية تنظيم جبهة النصرة الذي كان حتى ذلك الوقت يقاتل كفصيل تابع لتنظيم القاعدة. لكن ينم تنسيق داعش للحركة المفاجئة عن مورد خارجي ليس فقط من أجل التمويل، وإنما أيضًا الإستراتيجية والعقيدة والتدريب المبكر من خلال الخطط القتالية والعقيدة المعدة بإتقان والأساطيل الضخمة من شاحنات التويوتا ذات اللون الموحد، والمسلحة بالمدافع الرشاشة البراوننغ مثبتة في درج مقوى أو شاسيه السيارة بنفس الطريقة والمستوى المستعد للقتال. أشارت أصابع الاتهام إلى السعوديين، ولكن لم يكن لدى الاستخبارات الغربية ما تعلنه بهذا الصدد، وتم الحرص على أن تعكس السياسة والخطاب العام صورة المملكة العربية السعودية كحليف نبيل ضروري وقيم. ربما ظهر ارتباط مباشر بين ممارسات داعش في الأراضي التي استولت عليها والسياسات الاجتماعية للمملكة العربية السعودية من قطع الرؤوس والعقوبات وتقييد المرأة والتقليل من شأنها. ولكن الرواية التي تتخذ الآن صورة خطاب عام تنفي ذلك الارتباط.

افترض المقال الذي نشرته مجلة **أتلانتيك** في مارس ٢٠١٥ أن لداعش أجندة، بمعنى أنها لم تكن تعمل دون تخطيط، وتواصل تكنولوجي وإعلامي متطور أي ليس بسيطًا، وتواصل دولي فعلي أي لم تكن مجرد حركة تمرد صحراوية، وروح وهابية أي تتبنى عقيدة فكرية. بدت كل تلك الاستنتاجات مذهلة في مقال قصير

يعرض الموضوع على عجل، والسبب الوحيد وراء تلك الدهشة هو أن المعلومات نفسها الواردة بالمقال كانت «بدون سابق إنذار». لم يسمح تبسيط التهديد إلى شيء مؤذ بتطور موجز لذلك الأذى.

الوهابية وكآبة الصحراء

كانت الدراسات التي ظهرت بشكلٍ مفاجئ عن الوهابية عاجلة ولم تتمكن من التمييز. وكان لورنس العرب أول من لاحظ بالفعل الجانب الكئيب للقيود الوهابية حين زار إحدى واحاته المفضلة ليجد أن القهوة والغناء ومغازلة النساء قد منعت؛ لأنها حرام. كانت تلك القيود الكئيبة نفسها التي ميزت الدراسات المفاجئة، حيث إن طبيعتها المتقشفة المتعصبة جعلت منها صورة كاريكاتورية مناسبة للإسلام المتطرف كما يجب أن يكون، كما سمحت بخلطها تلقائيًّا مع طالبان بوحشيتها الاجتماعية بشكل اختزالي دون النظر إلى الاختلافات الثقافية الإقليمية والأجندات السياسية شديدة الاختلاف. فيصبح كل الشر واحدًا ويعمم حتى يفقد ملامحه، مما لا يحقق سوى عرقلة التحليل المفصل ليصبح دراسة نمطية بدون أي تعقيد للإحاطة التي ترسل للقادة السياسيين الذين يسعون فقط للتأكد من أن الشيطان البسيط أحادي البعد يرهب العالم.

كانت تعاليم محمد بن عبد الوهاب بسيطة بالفعل، فلم يكن من علماء الإسلام وإنما حصل على الأهمية والسلطة كحليف لآل سعود الأوائل حتى إن تعاليمه قد استخدمت في مرحلة مبكرة جدًّا لأغراض مسيّسة. استمر سيناريو خيانة آل سعود ثم استعادة العلاقات والاتفاقات السرية معهم بعد حصار مكة عام ١٩٧٩ وطور من تسييس التعاليم الصحراوية. كما أن لها جذورًا مسيسة في العصر الحديث في اتفاقية سايكس بيكو لعام ١٩١٦ التي قسمت الشرق الأوسط إلى مناطق امتلاك ومناطق نفوذ بين البريطانيين والفرنسيين. كانت المشاعر والميول والحدود المفضلة للشعوب

العربية عديمة القيمة، وجاءت اعتراضات لورنس العرب بلا قيمة. لكن حيث سعت الدولة الإسلامية الجديدة إلى تغيير الحدود الإمبراطورية وإعادة توحيد الشعوب العربية السنية وتطهير المنطقة العربية من المرتدين مثل الشيعة واليزيديين - بغض النظر عن الإمبرياليين الغربيين حاليًا - كانت أجندتها سياسية مناهضة للاستعمار بقدر ما كانت دينية. ولم يكن شيء من هذا ليحدث إن بقيت المملكة العربية السعودية فقيرة كيوم استقلالها عام ١٩٣٢، حيث لم يتم اكتشاف البترول حتى عام ١٩٣٨. كانت قبل ذلك الحين من أفقر دول العالم تعتمد على الضرائب المفروضة على الحجاج الوافدين إلى مكة والمدينة. كانت ظروف الحياة المتقشفة لترضي الوهابيين ولكن الثراء المفاجئ الذي تراكم بعد زيادة أسعار النفط عام ١٩٧٣ جلب نفوذًا سياسيًّا وشكلًا من أشكال القوة السياسية العالمية التي ينبغي النظر إلى الوهابية الحديثة في ضوئها باعتبارها من أهم المستفيدين المعنيين حيث لا يمكن تحليلها فقط من خلال جذورها الأساسية.

يجب أن يُنظر إليها بالتأكيد من حيث جذورها الدينية وتعاليمها، ولكن أيضًا في سياقها السياسي ودوافعها الأيديولوجية، فقد أصبح للتعاليم الدينية بُعد حديث إذ تسعى لفرض نفسها على الظروف الحديثة وسياساتها الاجتماعية واحتياجات الإدارة العامة الحديثة وسرعة وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة. لقد أنشأت داعش إدارة عامة لأراضيها المحتلة، كما تتعامل بالتأكيد مع الاقتصاد الحديث لتمويل عملياتها الضخمة ودفع أجور جيوشها من المحاربين الأجانب، ولديها قدرة هائلة متقنة للغاية على التواصل الاجتماعي والإعلامي. وعليها أن تحول كل هذه الأشياء ليس فقط في اتجاه الدين وإنما أيضًا الأيديولوجية. فهي معادية للغرب والمجتمعات الغربية، وتجند من الغرب المعادين لمجتمعاتهم حيث يعتبر من هاجموا باريس وبروكسل مجرمين لم يتم تجنيدهم ليصبحوا مسلمين متدينين، وإنما لتحويلهم لمقاتلين مؤدلجين أقوياء يرحبون بالتبريرات لمحاربة نظام قام بتهميشهم ونبذهم.

ليست ضد الغرب فقط من حيث أسلوب الحياة الغربي. فلهذا الأسلوب صداه حتى في المملكة العربية السعودية الخاضعة للسيطرة الاجتماعية. ولكنها ضد نظام الدولة الغربية حيث الهيمنة الوستفالية للقوى الغربية، فهي مناهضة لهذه الهيمنة، ويسعى كفاحها من أجل إقامة نظام الدولة الإسلامية إلى قلب الهيمنة الدولية. وإذا نجحت، قد تثبت الدولة الإسلامية أنها ليست أكثر راديكالية من حيث الممارسات اليومية مما عليه المملكة العربية السعودية الآن. لكنها حتى ذلك الحين ضد تواصل القوى الغربية خاصة في الأماكن المقدسة، وبالتأكيد من حيث التعبير المباشر عن الهيمنة الأمريكية من خلال الدعم الملموس لإسرائيل في الشرق الأوسط. ليست إسرائيل نفسها المشكلة هنا، وإنما المشكلة في كونها معقل الهيمنة الغربية. أما عن التعاليم الإسلامية البحتة لهذا الشكل من الإسلام فيتوجب سماع الملاحظات التحذيرية.

استحالة التأويل في صياغة السياسة الخارجية

تكمن المشكلة في استجواب هيئة قائمة على التعاليم الدينية في استخدام الأدوات المناسبة، فحتى مع الأدوات الدينية لا يوجد افتراض مستدام بأن نظام ديني واحد يناسب جميع الأديان. بالإضافة إلى أن النص نفسه يجب أن يأتي قبل الدين ويجب أن يكون موضع تقدير من حيث الفروق الدقيقة في اللغة المستخدمة وسياقه الثقافي والتاريخي. ثم يجب أن تكون هناك حساسية تأويلية شبه بديهية - يمكن اعتبارها روحانية - لتسمح بحل «ألغاز» النص. تنطبق قائمة المراجعة التالية من التحذيرات الأساسية على أي مسعى يهدف إلى «تفكيك» الإقناع الديني[٣٥]. لا يمكن «الوصول

(٣٥) Drawn from my fuller checklist, see Stephen Chan, "Trauma and Dislocation in the Postsecular World: Religious Fervor and the Problem of Methodology", chap. 3 in *Towards a Postsecular International Politics: New Forms of Community, Identity, and Power*, edited by Luca Mavelli and Fabio Petito, *Culture and Religion in International Relations* (New York, NY: Palgrave Macmillan, 2014): 49-64.

إلى حقيقة» الوهابية كأجندة بحثية لمكافحته. فمثل هذا الطموح الغائي يشوه ويحدد مسبقًا التحقيق الديني.

١- قبل البحث عن السلطات لتفسير المعنى، من الضروري أولًا قراءة النصوص التأسيسية.

٢- من الضروري الاعتراف بالسياقات التاريخية والثقافية وتقديرها.

٣- من الضروري الاعتراف بالأعراف اللغوية ومحاولة تقديرها، وخاصةً دور واستخدامات الاستدلال المجازي.

٤- من الضروري الاعتراف بتقاليد التناص، أي أن النص المقدس يفسره نص قانوني، كما في الإسلام يتم تفسير النص المقدس بنص روحاني ويتم تفسير النصين في اليهودية بنص أيديولوجي كما في الصهيونية الدينية.

٥- التأويل له وظيفة التحقيق العميق وكذلك في محاولة النص المقدس في التفوق على نفسه أي أن معناه عميق ويتفوق على نفسه.

٦- هناك جدل معرفي وجودي منذ قرون يشكل الأنساب التي تعتبر خلفية وأساس النقاشات الحالية.

٧- قد يقوم الجدل الحالي عمدًا أو بسبب الظروف بمنع أو تحريف المبادئ الأولى للتعاليم المقدسة.

يكاد يكون من المستحيل تحويل التحقيق الديني السليم إلى إحاطة للسياسة الخارجية أو منحه الكثير من النفعية في صياغة السياسة الخارجية، حيث لا يسمح بأي خيارات فعلية بالأخص؛ لأن التفسير الديني بشكل عام يكشف فورًا عن خيارات الفهم. ويصبح في النهاية توفيق خيار فهم يتناسب مع خيار العمل عملًا ترجيحيًّا. ومن الصعب تطوير مخزون جديد من السياسات قائم على التخمين، لكنه يتم الآن

إنشاء ذلك المخزون بالضبط عن طريق التخمين بطريقة شديدة السطحية، وغالبًا ما تتم المساومة عليها لتلبية المطالب التنظيمية المتنافسة وعدم التعامل مع القضية الحالية بجدية أو عمق. هذا صحيح داخل حكومة واحدة، مثل حكومة الولايات المتحدة، بل وأكثر منه في منظمة متعددة الأطراف مثل حلف الناتو.

أما بالنسبة للفاعل العقلاني الذي قد يأخذ دور المخلص الرئاسي ويفهمها جميعها ويتخذ كل الخيارات الصائبة من جميع القرارات السديدة القائمة على جميع الأحكام الصحيحة... حسنًا، لا يحقق ظهور الرئيس ترامب الآمال في هذا النوع من الرؤى كفاعل عقلاني يتصدى لداعش. جميعنا في الوقت الحالي سواء مع ترامب أو ضده يواجه فترة مطولة من دورات ودوائر السياسات والخطابات البسيطة. وسواء هزمت داعش على سهول نينوى أم لا فقد أثرت رؤيتها لنظام عالمي بدوافع معيارية مختلفة في العالم بشدة.

١٢

صيغة تأمل: الدبلوماسية ونهاية السياسة الخارجية كما نعرفها

ليست شخصية «الفاعل العقلاني» بالضرورة لرئيس جمهورية أو رئيس وزراء، خاصةً إذا تم تصويره في صورة شرطي من رعاة البقر في فيلم **ظهيرة مشتعلة** يواجه المسلحين بمفرده. وقد تبنى تشستر كروكر مساعد وزير الخارجية الأمريكي صورة شرطي **ظهيرة مشتعلة** بشكل أساسي في إطار مفاوضاته الممتدة الناجحة التي لم تخلُ من التوتر والحرج والمجازفة حول مستقبل أنجولا وناميبيا والتي اتضح لاحقًا أنها أثرت على جنوب إفريقيا في المستقبل بعد إنهاء الفصل العنصري[٣٦]. وقد كان في الأصل من العقول المدبرة للـ«مشاركة البناءة» الخاصة بالرئيس رونالد ريجان مع جنوب إفريقيا، حيث أُقيمت علاقات التواصل مع دولة الفصل العنصري من أجل أغراض الحرب الباردة والحصول على المعادن وضمان سلامة السفن الغربية عند المرور حول رأس الرجاء الصالح. وبرغم الرفق الشديد – وإن كان ملحًّا – تم الضغط على جنوب إفريقيا لا لإصلاح سياساتها وإنما لتطبيق تلك السياسات بطريقة أكثر رفقًا.

كان كروكر بمشاركته البناءة رجلًا من صناع السياسة، ورمزًا لردود الأفعال المخزونة التي تم صقلها وتعديلها بدقة، أما كروكر ذو شخصية راعي البقر من **ظهيرة مشتعلة** فقد كان استثنائيًّا بسبب الظروف الاستثنائية التي لم تتنبأ بها توقعات السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية. هزم الجيش الكوبي والطيران

---

(٣٦) Chester A. Crocker, *High Noon in Southern Africa: Making Peace in a Rough Neighborhood* (New York, NY: W. W. Norton, 1993).

السوفييتي قوات الدفاع الجنوب إفريقية في معركة كويتو كوانافالي بجنوب أنجولا عام ١٩٨٨. لم يكن هناك أمل في أية محادثات قبل تلك الهزيمة، ولا سيما محادثات بعواقب جسيمة. ورغم ذلك استطاع كروكر من إبداء حرية لم تكن متوقعة في مواجهته الأولى، حيث تعامل كصانع سياسات راق ومحنك في الوقت ذاته.

ربما استطاع جون كيري أن يتعامل ببعض تلك الحرية في مفاوضاته مع إيران حول القضايا النووية. ولكنه كان مدعومًا من الرئيس أوباما الذي من الواضح أنه أراد التقرب إلى إيران، حيث كان التعامل مع داعش المنصهرة في سوريا والعراق والتوصل لأنسب الطرق للتعامل مع ازدواجية المملكة العربية السعودية ورئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو والدولة البوليسية الناشئة من جديد في مصر كافيًا دون الوقوع في عداوات مع إيران أيضًا. وعلاوة على ذلك وإن كان من منظور الاختزال، قد يكون التوازن الشيعي مع الدول السنية المتناحرة والمتقلبة صرخة تحذيرية كافية لتوحيد صفوفها السنية. وفي النهاية حققت محادثات كيري تقدمًا ولكن بعد قرار الولايات المتحدة لتغيير نهجها - وإن كان بعد التلميح الإيراني عن النهج المقبول - وبدأت في إبداء احترام وأهمية للوفود الإيرانية لا للـ«حضارة» الإسلامية وإنما لحضارة «عظيمة» ذات عراقة كلاسيكية قد أشرت إليها سابقًا في هذا الكتاب. ولكن تلك الرسالة قد استغرقت بعض الوقت قبل تصفية العمليات التنظيمية الخاصة بوزارة الخارجية من خلال التحليلات المخزونة. وكذلك لم يُحدِث تغيير نبرة كيري صخبًا إعلاميًّا، حيث كان هناك خطاب عام عن الشر الإيراني الخبيث الذي يستوجب «السيطرة عليه» بدأ بشكل هستيري في عهد جيمي كارتر، واستمر تطوره بكدّ إلى يومنا هذا.

ولكن من النادر أن يظهر شخص واحد بتلك الحرية أو الفروق الدقيقة في نهاية عملية آلية وبيئة استطرادية. سعى هنري كسنجر لأن يكون المستخدم الأساسي لتلك الحرية، وخلق تجديدًا مذهلًا بنظام الدولة الوستفالي وإرثًا من آرائه الفكرية كدارس لما يجب أن يكون عليه مثل هذا النظام العالمي، قائم على الهيمنة مع التوازن

في نفس الوقت والاستقرار مع المساواة والتعددية بقيادة منسقة كالفرقة الموسيقية التي تؤدي لحنًا يمكن توقعه ببعض الحرية للعمل الفردي ولكن مع بقاء الولايات المتحدة القائد الرئيسي. وغالبًا ما أبهر فقط من أجل الوصول لنتيجة أو مجرد التأثير. ولكن لم يكن له مثيل في تاريخ ما بعد الحرب بكل خياناته وتضحياته بالآخرين. لايزال الكثيرون يعتبرونه من مجرمي الحرب ولكن مهاراته الدبلوماسية لا غبار عليها.

ولكن هل نظام الدولة الوستفالي الخاص به آمن؟ وإن لم يكن آمن بالشكل الكافي، هل يمكن أن تحميه صياغة السياسة الخارجية والقدرات الدبلوماسية حتى مع ازدهار الحرية الإبداعية في بعض الأحيان؟

المساواة وتوازن الهيمنة

شهد عهد كسنجر توازن القوى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. دخل السوفييت هذا النوع من النظام العالمي بعد حصولهم على الأسلحة النووية، حيث كانت قيمة تلك الأسلحة والقوة والنفوذ التي أبدتها سببًا في ذلك التوازن. ولا يمكن إنكار أهمية أعداد الحلفاء ومجالات النفوذ ولكنها أهمية ثانوية بعد إقامة التدمير المتبادل المؤكد (MAD) ترسيخًا لتوازن القوى. لم يكن من المهم أن للولايات المتحدة أسلحة نووية أكثر أو آليات تنفيذ أفضل، حيث يمكن لكل طرف تدمير الآخر عدة مرات؛ ولذلك لم يكن هناك ضرورة للحسابات الدقيقة. ربما حسابيًّا امتلكت الولايات المتحدة هيمنة أكثر لكن هذا لن يؤثر على التوازن الأساسي.

كان السوفييت على استعداد لاختبار التوازن وإمالة الميزان قليلًا، وقد فعلوا ذلك بأزمة الصواريخ الكوبية، ولكنهم انسحبوا في لحظة الخطر الحاسمة. ولكن أظهر ذلك أنه يمكن التنازع حتى على الهيمنة في إطار التوازن، فقد تم السماح بمقاييس مرنة

للقدرة على التدمير مادامت القدرة على التدمير سليمة، ولم يحدث أي تدمير فعلي. علاوة على ذلك، كان العالم مقسمًا إلى كتل، وكانت الكتل الغربية والشرقية مناطق الهيمنة. وكان بكل كتلة ما يكفي من التوازن والتنازع المحلي.

إن العامل المعقد في كل هذا كان الصين التي كان بإمكانها أن تكون فاعلًا خبيثًا في إطار موازين القوة، حيث كانت تمتلك القدرة النووية وفي حرب باردة مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. كان إخراج الصين من المعادلة بالتقارب التاريخي أحد أعظم انتصارات كسنجر. في الواقع، أدرك كسنجر ببعض الحسابات أن الصين يمكن أن تصبح «متحضرة» وأن تكون «مستأنسة» داخل النظام، أي تتعلم التصرف كقوة لا تسعى لإمالة الموازين بينما تبقي على قوتها ونفوذها بشرط عدم المساس بالتوازن العالمي. وقد مكن ذلك الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي من اللعب بطريقة ثنائية وجعل «حساباتهم العقلانية» لسلوك بعضهم البعض أسهل.

ولكن يجب أن نتذكر الخطوة الجذرية التي اتخذها كسنجر. فقد كان الخطاب الصيني في فترة ما قبل التقارب صاخبًا وربما خطيرًا، ولعل وصف الغرب بالـ«نمور الورقية» وحلفائه بالـ«كلاب الراكضة» مقتبسًا من المسرح والهجاء الصيني الكلاسيكي ولكنها بدت وقاحة لمن لا يألف تلك الثقافة، وقاحة مصحوبة بالأسلحة النووية، حيث كانت قد خاضت حربًا ضد الولايات المتحدة في كوريا وتدعم حربًا ضدها في فيتنام.

وقد اتخذ هذا الخطاب على محمل الجد لدرجة أنه في عصر حملات مكارثي المناهضة للشيوعية في الخمسينيات تم تطهير وزارة الخارجية الأمريكية من علماء الصينيات أي الخبراء بالصين مثل جون سيرفس الذين تمت الإساءة لمستقبلهم الوظيفي وفصلهم. وبالنظر إلى ذلك نجد الأمر لا يختلف كثيرًا عن الإسلاموفوبيا التي تنتشر الآن.

توازن في القرن الحادي والعشرين

وكما حدث مع الصين في السبعينيات قد يتطلب التوازن المستقبلي إدراج دول جديدة وقوات جديدة في النظام العالمي حتى وإن كان على النظام العالمي التغير بشكل ما لاستيعابها. تكمن المشكلة في أن الجهات الفاعلة تجلب إلى النظام أدوات النزاع، والسؤال هنا ما إذا كان من الأفضل وجودها داخل النظام - مما قد يعيد تحديد التوازن وسيجعل الأمر أعقد كثيرًا من لعبة ثنائية بالتأكيد - أو خارجه على استعداد لتهديده. على الأقل حتى الآن لا تمتلك الجماعات المتمردة التي ترغب في اتخاذ شكل من أشكال الدولة أسلحة نووية، قد يكون لديها «طابور خامس» داخل المجتمعات الغربية لكنها على الأقل أكثر اهتمامًا بالممارسات الاجتماعية عن الأسلحة النووية التي لم يسبق أن تحكم بها أبدًا هيئات شعبية.

قد تعتمد البيئة العالمية المستقبلية وسياساتها الخارجية بشكلٍ أقل على عوامل جذب «الجهات الفاعلة العقلانية» الملزمة المحددة وبشكل أكبر على إيجاد سبل التقدم في العمليات والمنظمات التي ستصبح أكثر فوضى من ذي قبل. وقد يكون هناك حاجة لمزيد من الارتباط بين السياسات الداخلية والخارجية، كما سيكون هناك نهاية للمخزون القديم ونأمل في نهاية (بطيئة للغاية) للتبسيط والاختزالية.

الفاعل الوحيد العقلاني الذي يستحق البقاء؟

لم يقصد غراهام أليسون أبدًا نموذج «الفاعل العقلاني» للإشارة إلى قائد فردي أو مؤسسة قائمة بذاتها منقادة ولو بشكل جزئي. لقد كان الخطاب العام ما حبب فكرة إمكانية ظهور البطل الدبلوماسي الخارق، وهو جزء من الخطاب الذي يتعلق بهنري كسنجر، والتصور العام للرئيس جون كينيدي أثناء أزمة الصواريخ الكوبية بأنه الرئيس القلق على قمة العرش حاملًا مسئولية العالم يتدبر خيارات وجودية عظيمة

ويحمل حرفيًّا قوة التدمير بين يديه. لم يكن الأمر كذلك ولا يمكن أن يكون. لن يحدث حتى بالبداية العقلانية التي قام بها الأمين العام الجديد للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس، فهو مقيد مثل أسلافه كما أشرنا من قبل. ولكن على مستوى آخر كانت بعض الإمكانيات قائمة.

إذا كان عالم الدبلوماسية بحاجة إلى شخصية بطولية أو نمط بدائي حتى يصبح أكثر من مجرد لعبة مساومات وتوازن وخياراتها، يبقى موظف الأمم المتحدة جياندومينكو بيكو الأسطورة الحقيقية.

في الوقت الذي أطلق فيه تشستر كروكر على مذكراته **ظهيرة مشتعلة في جنوب إفريقيا** على غرار فيلم كاري جرانت عن الشرطي راعي البقر الذي يعمل منفردًا، أطلق بيكو على مذكراته عنوان **رجل بلا سلاح**[٣٧]. فمن أجل ضمان إطلاق سراح الرهائن الغربيين في أزمة لبنان في الثمانينيات، سمح باختطافه مرارًا وتكرارًا، حيث سحبه زعماء الشبكات الإرهابية معصوب العينين ومقيدًا حتى يتمكن من التفاوض في«أعلى المستويات الإرهابية»، وبذلك قام بشيء نادر الحدوث في الدبلوماسية لا تقوم به أي هيئة دبلوماسية أو دبلوماسي اليوم وبكل تلك المخاطر قد يكون ما يحتاجه العالم المتوتر العنيف، قفزة بعيدًا عن المألوف... قفزة في الظلام.

(٣٧) Giandomenico Picco, *Man without a Gun: One Diplomat's Secret Struggle to Free the Hostages, Fight Terrorism, and End a War* (London: Crown, 1999).

قائمة المراجع

- Abulof, Uriel. "Deep Securitization and Israel's Demographic Demon", *International Political Sociology* 8, no. 4 (December 2014): 396-415.
- Adebajo, Adekeye. *The Curse of Berlin: Africa after the Cold War*. London: Hurst, 2010.
- Bailey, Sydney D. *Four Arab-Israeli Wars and the Peace Process*. London: Macmillan, 1990.
- Boyce, Mary. *Zoroastrians: Their Religious Beliefs and Practices. Library of Religious Beliefs and Practices*. Abingdon, Oxfordshire: Routledge, 2000.
- Brown, Jonathan A. C. *Misquoting Muhammad: The Challenge and Choices of Interpreting the Prophet's Legacy*. London: Oneworld, 2015.
- Chan, Stephen. *The Commonwealth in World Politics: A Study of International Action, 1965–1985*. London: Lester Crook Academic, 1988.
- Chan, Stephen. *Out of Evil: New International Politics and Old Doctrines of War*. London: I. B. Tauris; Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2005.
- Chan, Stephen, ed. *The Morality of China in Africa: The Middle Kingdom and the Dark Continent*. London: Zed Books, 2013.
- Chan, Stephen. *Southern Africa: Old Treacheries and New Deceits*. New Haven, CT: Yale University Press, 2011.
- Chubin, Shahram, and Charles Tripp. *Iran-Saudi Arabia Relations and Regional Order. Adelphi Series* 304. Abingdon, Oxfordshire: Routledge, 2005.
- DeLong-Bas, Natana J. *Wahhabi Islam: From Revival and Reform to Global Jihad*. New York, NY: Oxford University Press, 2008.

- Itugbu, Steve. *Foreign Policy and Leadership in Nigeria: Obasanjo and the Challenge of African Diplomacy. International Library of African Studies*. London: I. B. Tauris, 2017.
- Kissinger, Henry. *On China*. Reprint edition. London: Penguin, 2012.
- Moorcraft, Paul. *The Jihadist Threat: The Re-conquest of the West?* Annapolis, MD: Naval Institute Press, 2016.
- Plesch, Dan, and Thomas G. Weiss, eds. *Wartime Origins and the Future United Nations. Global Institutions*. Abingdon, Oxfordshire: Routledge, 2015.
- Rashid, Ahmed. *Taliban: Islam, Oil and the New Great Game in Central Asia*. London: I. B. Tauris, 2001.
- Watson, Geoffrey R. *The Oslo Accords: International Law and the Israeli-Palestinian Peace Agreements*. Oxford: Oxford University Press, 2000.
- Weiss, Thomas G., and Rorden Wilkinson, eds. *International Organization and Global Governance*. Abingdon, Oxfordshire: Routledge, 2014.
- Weiss, Thomas G. *What's Wrong with the United Nations and How to Fix It*. Foreword by Sir Brian Urquhart. 2nd ed. Cambridge: Polity, 2012.

عن المؤلف

كان ستيفن تشان – الحاصل على رتبة الإمبراطورية البريطانية – العميد المؤسس للقانون والعلوم الاجتماعية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن حيث يشغل الآن منصب أستاذ السياسة العالمية. كما شغل العديد من المناصب حول العالم، آخرها منصب رئيس التميز الأكاديمي بمؤسسة كونراد أديناور بجامعة بيرزيت عام ٢٠١٥، ورئيس مؤسسة جورج سوروس للسياسة العامة في جامعة أوروبا الوسطى عام ٢٠١٦. كما منحته جمعية الدراسات الدولية لقب الباحث البارز في التنمية العالمية لعام ٢٠١٠. وكذلك فقد ساهم كموظف مدني دولي في التعريف بمراقبة الانتخابات الحديثة في زيمبابوي عام ١٩٨٠، وقد عمل في العديد من مناطق ما بعد الصراع – حيث كانت فكرة «ما بعد الصراع» تسمية خيالية وإن كانت حكيمة ولا يزال يدعم العديد من المبادرات الدبلوماسية حول العالم.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية